

طبعة ثانية بمكتبة الزهر

قلعة الأبطال

تأليف
عبد الحميد جوده النجار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مصطفى - الجيزة

انساب الفلاحون والفلاحات فى الطريق الذى مهدته الأقدام بين الحقول
الخضر ، مقطبى الجبين ، يلوح فى وجوههم الذابلة الأسى والذل . كانوا فى
طريقهم إلى السوق ليسيحوا إلى المرائين ما بقى عندهم من حلى أو متاع . فقد
أرسل إليهم الخديو إسماعيل جباة الضرائب وفى أيديهم السياط لينتزعوا منهم
غاية ما يمكنهم أن ينتزعوه بالبطش والإرهاب ، ولتتصوا دماءهم قطرة
قطرة ، ما دامت تلك القطرات تسكت حملة القراطيس الأجانب الذين
ارتفعت أصواتهم يطلبون دفع قسط « الكوبون » الذى وافى أجله .

كان إسماعيل يبنى القصور ، وقيم الحفلات للملوك والملكات ، ويدعو
كبار الفنانين والفنانات ، ونثر المال ذات اليمين وذات الشمال ليهرى الغرب
بيذخه وكرمه ، ويزهو لحظات فى خيلاء ، حتى إذا ما ابتلعت مبادئه
الأموال . واختفت فى جيوب من التف حوله من الأفاكين والساقطات ،
وذابت ثروة البلاد ، نسي كبريائه ، ومد يده يستجدى الدائنين ليشبع فى
نفسه شهوة الإنفاق .

مد الطرق ، وأنشأ مشاريع كبيرة ، وأقام صناعات ضخمة . وأغرق
البلاد فى الديون ، ولكن لم يكن هدفه الإصلاح ، فما كانت مشاريعه ترى
النور حتى تهمل وتترك للوحوش والهوام ، فكل همهم أن يعلن عن نفسه وإن
جر ذلك البلاد إلى الخراب .

رهن إيرادات الجمارك والسكك الحديدية ، وأراضيه الخاصة ، فلما استنفد موارد الدولة لم يجد أمامه إلا الفلاح يرهقه طغيانا ، ويرغمه كرها على أن يمدّه بالأموال . إنه البقرة الحلوب ، فكان يفتن في اغتصاب ثمرة جهوده بالقسوة والاستبداد ، ولا غرو فالاستبداد خلق فيه .

انطلق الرجال حاسرى العروس . لا يستر أجسامهم النحيلة الضاوية إلا قمصان مغبرة تتم عن رقة الحال . فما ترك لهم إسماعيل ما يقصم قر البرد ولفح الهجير ، وسار النسوة في ثيابهن السود القفضافضة وقد عبثت بها يد الزمن فمزقتها وسلبت ألوانها ، وبعثت الشمس أشعتها الحامية فتفصد العرق من الأبدان وربا الحقد واشتد كرب الصدور .

سارت خديجة مطأطئة الرأس تقلب بين يديها خلخال أمها الفضى منقبضة النفس ، فهو أعز ما عندهم ، إذ كان أبوها الشيخ يحرص عليه فهو آخر ما يذكره بزوجه الراحلة ، وإن خديجة لتذكر أنه دفع لها نصيبها فيه أيام الرخاء ليحتفظ به ذكرى أيام سعادته وهنائه ، وإذا بإسماعيل يرغمه على أن يرسله إلى السوق . . ليوفى بعض ما وضع على عاتقه من ضرائب ، واتقاء لبدنه من سياط الطغاة الظالمين .

وبلغت السوق فتوقفت لحظة ، ثم رمت ببصرها تنظر فإذا بها تموج بالفلاحين والفلاحات الذين وفدوا إليها يعرضون ما عندهم من حلى أو ثياب ، وإذا بالمرابين اليونان والأروام والطيالان يغدون ويروحون في نشاط يشع الجشع من عيونهم ، يسامون في رطانة خبيثة ، ويأكلون أموال المساكين الذين دفعهم ظلم سلطانهم إلى براثنهم في لذة ونهم ، قبصقت خديجة على الأرض في ضيق ، ثم اندفعت تموج مع المائجين .

طفقت تعرض الخلخال على هذا وذاك وتلف وتدور ، حتى إذا ما قنطت من أن تحصل على ثمن أعلى مما عرض فيه ، دفعت بالخلخال إلى الرجل الرومى وهى تقول فى غيظ :

— خذ لا بارك الله لك فيه ، وهات النقود .

ورنت إلى السماء وقالت فى حرارة وقد كادت الدموع تطفر من مآقيها :

— الله يخرج بيت من كان السبب .

وإذا بأصوات من حولها تنطلق منفسة عما فى الصدور :

— آمين .

وانسلت خديجة من السوق ، وارتدت على أعقابها شاردة اللب تعبت بالنقود ، حتى إذا بلغت الدار المتواضعة دلفت إلى القاعة وتقدمت من أبيها الذى كان مطرقا فى عبوس ، ودفعت إليه بالنقود وهى تقول فى غضب :

— كل من فى السوق لصوص .

ثم التفتت خلفها ونظرت إلى السماء من خلال باب الدار وهتفت :

— الله يخرج بيته على أيدي الأروام ، يارب سلطهم عليه كما سلطهم علينا يأكلون لحمنا كالودود .

وقال الشيخ فى قنوط :

— والله لا أدرى ماذا نفعل إذا حلت مواعيد الضرائب الأخرى ، ليس عندنا ما ندفعه ، ولم نعد نملك ما نبيعه .

فقالت له خديجة تواسيه :

— ربنا موجود .

خشعت الكائنات وراح كل شيء فى سبات ، حتى نجوم السماء
هجمعت ، وأسدل على الكون نقاب نسج من خيوط الظلام ، وران على
القرية سكون عميق ما كان يعكره إلا نقيق الضفادع وصفير الجنادب ونباح
كلب بعيد .

وانحسر النقاب فى الأفق الشرقى عن ضوء خافت جعل يفيض على كل ما
حوله فيطفو على سواد الليل ، وصاحت الديكة ، وجلجل صوت المؤذن
يدعو الناس إلى الصلاة ، فنهض الشيخ إبراهيم يتوضأ ، وذهبت خديجة فى
عماية الصبح توقد المجرمة وتعد الطعام والقهوة .

وقضيت الصلاة فجلس الشيخ يقرأ بعض السور القصار ، ثم التفت إلى
حفيدة النائم إلى جواره ، ومد يده وجعل يهزه فى رفق ويهتف فى حنان :
— حامد .. حامد .. قم ..

فنهض حامد من نومه يتمطى ويتشاءب ويفرك عينيه بظهر يده ، وصاح
الشيخ :

— خديجة ، أيقظى سعدية ..

وتحلقوا طاجنا به لبن رائب ، وجعلوا يسحبون الخبز من فوق المجرمة
ويغمسونه فيه ، ثم تناول الشيخ قهوته ونهض يتأهب للانطلاق إلى عمله .
كانت الشمس تبعث أشعتها الأولى إلى القرية تتلمس طريقها فى جهد إلى

الكوات الضيقة في الدور الهزيلة الذليلة المبينة بالطين ، وفتحت الأبواب فارتفع لها صرير امتزج بخوار الثيران وثغاء الأغنام ونهيق الحمير . ودلف الفلاحون إلى الطريق الضيق المتعرج تفوح منه روائح روث البهائم وعفن الماء الآسن فلم تنقبض عضلات وجوههم امتعاصا ، فقد ألفت أنوفهم ذلك العبير .

انطلق الشيخ إبراهيم وحفيده يتجاذبان أطراف الحديث ، كان الشيخ طويلا نحिला في الخامسة والستين . أسمر الوجه أبيض الشعر يحف شاربه ويطلق لحيته ، له عينان سوداوان ضيقتان غائرتان ولكن بصره حديد ، تمكن بعد كفاح مرير وجهاد طويل من أن يحتفظ بالقدانين اللذين ورثهما عن أبيه . وهو قانع بعيشه ، وكل ما يخشاه أن يرغمه جباة الضرائب على رهن أرضه . إنه يحس أنها قطعة منه ، وأبغض ما يبغضه أن يفقدها أو يتركها لقمة سائغة للمرابين الذين انطلقوا كالحيات في الريف يمتصون دم أهله . إنه وإن كان قد عجز عن أن يزيد فيها ، فلا أقل من أن يورثها خديجة وحامد وسعدية كما ورثها عن أبيه .

كان يعمل فيها بنفسه يعاونه حامد ، وما كان بقادر على أن يستعمل أجيرا فهو لا يملك أجره ، وحتى إذا كان يملك ما يدفعه له فما كان ليعثر على من يشتغل عنده فالأغنياء يأخذون العمال قسرا ويرغمونهم على العمل في ضياعهم سخرة ، وما كان لأحد أن يجار بالشكوى ، فذلك حق الأغنياء في أمة كل من فيها عبيد .

وكان حامد في السادسة عشرة ، متوسط القامة ، ضامر الجسم ، قتل أبوه في حروب إسماعيل التي ألقى بالمصريين في أتونها يصلون نارها ، وهو ينتقل بين قصوره ومسارحه وأحضان الغانيات لينبئ لنفسه مجدا ، ويشيد

إمبراطورية على أجداد ضحاياها يختال بها بين المختالين .
تركته أمه عند جده بعد موت أبيه وتزوجت ، فشب لا يعرف له أهلاً إلا
جده وعمته خديجة ، وابنة عمته اليتيمة سعدية التي شاطرته طفولته وأيامه
وليا ليه .

عكف الشيخ على أرضه يحرثها ، وجعل الفتى يمهدها ويحمل التراب على
عائقه ويشق القنوات ويغدر ويروح في نشاط ، حتى إذا ما تقلص الظل
وتربعت الشمس على عرش السماء ، جاءت سعدية تهش بعصاها على
غنمها ، فلما بلغت شجرة التوت القريبة من الساقية استلقت تحتها تنفياً
ظلالها ، ولحها حامد فهرع إليها ، وأقبل عليها يحادثها وقد أضاء وجهه يريق
حلو ولد في عينيه .

كانت سعدية في الثامنة عشرة ، سمراء فاتنة ، ممتلئة الجسم نامية ، وكان
حامد يحبها منذ كانا طفلين يديران الساقية وبركبان النورج ويهرولان إلى
الترعة يستحمان فيها ، ولكنه يحس نحوها الآن حبا آخر جارفاً يملأ أقطار
نفسه ، حبا يختلف عن ذلك الحب الذى كان يفيض به قلبه في أيام طفولته ،
إنه يشعر برغبة في أن يمتلكها ، أن تكون له وحده .

وأقبلت خديجة تحمل الطعام على رأسها ، وجاء الشيخ وجلس ، وتحت
شجرة التوت تناولوا طعامهم ، فلما فرغوا منه تمدد الشيخ وأخرج كتابا طفق
يقرأ فيه ، واضطجع حامد وجعل يرنو إلى سعدية منتشياً ، وأخذت خديجة
تجبل بصرها بين الغنم وتشرذ بذهنها تحلم ، فالأغنام ملك يمينها وفيها كل
آمالها . وتصرمت ساعة نهضوا بعدها يستأنفون ما كانوا فيه .

مالت الشمس للغروب ودب الوهن في الأجسام ، فهجر الفلاحون

حقولهم إلى حيث يريحون أجسامهم المكدودة . انطلق الشيخ إبراهيم إلى داره ، وسار حامد وسعدية خلف الغنم يتناجيان ، فلما عبرا الجسر وبلغا التربة أفليا الناس متجمهرين ، فأغذا السير واختلطوا بالقوم ، وإذا بصائح يصيح :

— رأيت شعبا يجذب الرجل ويغوص به في الماء .

وقال آخر وقد اتسعت عيناه :

— خطفته امرأة ، رأيتها بعيني هاتين .

وقال ثالث :

— إنها جنية شغفت بالرجل حبا ، فخرجت إليه عارية ناصعة البياض وقد تهدل شعرها الأصفر وخطفته ليعيش معها في دنياها .

وتناثرت القصص المثيرة ، ولم يتحرك رجل واحد لينقذ الغريق ! .

واستأنف حامد وسعدية سيرهما ، وظلا صامتين برهة ، ثم قالت

سعدية :

— أتصدق يا حامد أن جنية تخطف رجلا .

فقال كالحالم :

— والله لا أدرى ، ولكن لو صدق ذلك لكان شيئا لذيذا .

فقالت له في فرع :

— ماذا تقول ؟ أجننت ؟!

فقال وقد رفت على فمه بسمه عذبة :

— ما ألد أن يكون المرء محبوبا ، إننى أشتهى أن أذهب مع من تحبني إلى أى

مكان ، ولو إلى قاع البحر .

وصمتا ولفهما قلق لذيذ .

تدلت المصاييح على واجهات الدور فبعثت أشعتها الواهية تبدد بعض ظلمات الطريق ، وراحت ظلال أعواد الحطب المكومة فوق السطح تراقص كأشباح كلما عبث الهواء بالمصاييح ، وراح الصبيان يلعبون في الحارة ويمرحون يرددون الأغنيات في فرح ، لقد نسوا ما كانوا فيه من يؤس وضيق ، فالليلة من ليالى رمضان المباركة التى تتفتح لها النفوس .

وبلغوا دكان القرية ، فرأوا المصاييح الملونة متدلية وقد توهجت فيها شمعات فتألق الزجاج الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر ، فهفت إليها قلوبهم ، واكفهرت وجوههم فقد تذكروا الحرمان الذى يعيشون فيه . ولكن سرعان ما تبددت مرارة النفوس واستأنفوا لهوهم ، وعاد إلى وجوههم القدرة لإشرافها وابتساماتها .

وقضيت صلاة التراويح ، فغادر الشيخ إبراهيم مسجد القرية وسار صوب داره ، حتى إذا ما دنا منها منس أذنيه صوت أخاذ يردد بعض آى الذكر الحكيم ، فوقف الشيخ يصغى كالمسحور ، ودنا من الصوت فألقى غلاما يقرأ فى حرارة وثأثر وفهم ، فجعل يرنو إليه فى إعجاب ، وفطن الفتى إلى وقفته فغض من بصره حياء ، فقال له الشيخ مشجعاً :

— ما شاء الله ! ما اسمك يا فتى ؟ .

— يوسف ، ابن جاركم الشيخ سليمان .

— وأين تعلمت هذا الترتيل ؟ .

— فى كتاب القرية .

— تعلموا كلهم تلاوة القرآن فى كتاب القرية ولكنهم لا يرتلون مثلك ،
إنهم يذكروننى بالمقرئين الذين يقرءون على المقابر .

فابتسم يوسف وقال مزهوا :

— إننى لست مثلهم ، إننى أطلع كثيرا لأحقق أمنيى .

— وماذا تمنى ؟

— أن أجاور فى الأزهر .

فقال الشيخ بامتعاض :

— يا خسارة .

فقال يوسف فى دهش :

— لماذا ؟ .

— هذا حديث طويل .

فقال الفتى فى حماسة .

— أحب أن أسمع .

— تعال معى إن أردت .

ودلف الشيخ إلى داره والفتى فى أثره ، وتربع الشيخ على المصطبة وجلس

يوسف يرنو إليه ، قال الشيخ :

— كنت فتى فى مثل سنك :

ثم ابتسم وقال :

— كان ذلك من نصف قرن ، فقد صرت أحسب الزمن بأنصاف

القرون ، تمنيت يوما مثلك أن أجاور فى الأزهر ، فشددت الرحال إلى

القاهرة ، وذهبت إلى حلقات الشيوخ وكلى رغبة في تلقى العلوم ، راح الشيوخ يلقون ما يعرفون وما لا يعرفون ، حاولت أن أفهم ولكننى لم أكن أفقه شيئاً مما يقولون ، هذا يشرح الكفراوى على الأجرومية ، وذلك يشرح الزرقانى على العزبة ، وثالث يسهب فى شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، فأحسست رأسى يدور ، وأعمدة الأزهر تتراقص ، وخيل إلى أن الشيوخ يتحدثون بلغة أخرى غير اللغة العربية . كنت أفهم القرآن إذا سمعته وتأثر به ، ولكننى لم أكن أفهم ما يقولون . وجاهدت نفسى وكابدت هذا العناء سنة ، فررت بعدها بروحى وجئت إلى هنا أنفق السنين فى تنظيف عقلى من تلك الأدران التى علقت به .

وفطن الشيخ إلى نظرات الشك التى يطالعه بها يوسف ، فقال له :
— لماذا تحفى عنى ما يدور فى نفسك ؟ إنك تظن أنتى كنت لا أصلح أن أجاور فى الأزهر .

وغض يوسف من بصره ، خجل من أن الشيخ اطلع على سريره ، وقال له الشيخ متلطفا :

— لماذا تطرق يا يوسف ؟ من حقك أن يدور مثل هذا الظن فى نفسك ، ولكننى أقول لك إننى نفرت من ذلك الهراء الذى يحشو به الشيوخ الجامدون عقول الأزهرين ، فقد عكفت على الكتب وحدى ، وقرأت ما كتبه المتقدمون ففهمته وعقلته ، وزادت الأيام فى تجاربى فتيقنت من أن العامة قد ابتلوا بهؤلاء الشيوخ المتزمتين الذين ملأوا رعو سهم بالبدع والخرافات .

وصمت الشيخ قليلا ثم قال :

— وماذا تقرأ يا يوسف ؟

— حكايات الصالحين .

— ومن تحب منهم ؟

— ابن الفارض ، والجنيد ، ورابعة العدوية .

فأشرق وجه الشيخ وقال :

— تحب التصوف ؟! هذا جميل ، ولكن قل لي : ماذا تحفظ من كتبهم ؟

— بعض الأوراد و ..

— هذه الضلالات والبذع المتغلغلة في كتب الصوفية .. لا تقرأ يا يوسف

غير القرآن للذكر والتسبيح ، إن كتب التصوف زاخرة بالشعائر المخالفة

للسنة والدين . سأعطيك كتابا لابن القيم حرر علم التصوف ونقاها من

دسائس الدسائسين .

ونهض الشيخ وغاب قليلا ثم عاد يحمل كتابا دفع به إلى يوسف ، فتناوله

وراح يقرأ في شغف : مدار السالكين للإمام الشهير ابن القيم ، شرح فيه

كتاب : منازل السائرين لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد

الأنصاري المتوفى سنة ٤٨٠ هجرية .

ودخل حامد وسعدية ، فأخذ يوسف ينظر إليها ، وفطن حامد إلى نظراته

فأحس غيرة وتدفق الدم حارا في عروقه ورماه بنظرة شزاء ، ولكن يوسف

لم يحفل بها وظل يتطلع إلى سعدية حتى غابت عن عينيه .

ونهض مستأذنا ، وما كاد ينصرف حتى قال حامد لجلده في حدة :

— من هذا ؟

— هذا يوسف ابن الشيخ سليمان ، إنه يقرأ القرآن ويهتم بكتب

التصوف .. و ..

فقال حامد في بلاهة :

— وما له وللصوف ؟ ! .

— ماذا أقول لك يا حامد ؟ لن تفهم مما أقول شيئاً ، ولو لم تفر من الكتاب وأنت صغير لما أعياك أن تفقه قولي .

فقال حامد في غيظ :

— أيفهم هو ما تقول ؟

— يخيل إلى يا حامد أنه ذكي ولن يعيه أن يفهم ما أقول .

فاستشعر حامد حقه يتحرك ، وأراد أن يهون من شأن ذلك الفتى الذى تفتح له قلب جده ، فقال :

— لن يزيد في يوم من الأيام على أن يكون فلاحاً .

فطن الشيخ إلى أن حفيده يعرض به ، ولكنه لم يغضب بل قال :

— إنه يستطيع أن يكون أى شئ ، لولا تلك الفكرة المجنونة المستولية عليه ، ففكرة أن يجاور في الأزهر .

فقال حامد في انفعال :

— ما فكر في الأزهر إلا ليفر من الجهادية .

وانصرف وهو يهرول في سيره ، وجده يتبعه بنظره وقد ولدت على شفثيه
بسمه .

هرعت سعدية إلى خديجة ، وقالت لها وهى تقفز فى خفة وقد أشرق وجهها بابتسامة دعابة وعبث :

— مبارك يا خالة .

فالتفت إليها خالتها باهتمام وقالت :

— ماذا جرى ؟

فقالت سعدية وهى تغالب ضحكاتها :

— خطبك الآن علوان .

فقطع الشيخ إبراهيم قراءته ، ونحى الكتاب عنه وقال فى حدة :

— خطبها ممن ؟!

فقالت سعدية فى تخابث :

— خطبها منى أنا ؟ .

وأزهفت خديجة أذنيها لتسمع ذلك الحديث العذب الذى يدغدغ حواسها ، فحديث الزواج أشهى الأحاديث إلى قلبها ، إنها تزوجت ثلاث مرات ، وقد أصبحت فى الخامسة والأربعين ، ومع ذلك تعيش على أمل واحد هو أن تزوج ، وقطب الشيخ جبينه وقال :

— وكيف حدث ذلك ؟!

فراحت سعدية تقص قصتها ، قالت :

— كنت عائدة إلى الدار أسير خلف الغنم ، فإذا بعلوان يدنو منى ويسألنى .. « غنم من هذه ؟ » فقلت له : « غنم خالتي خديجة » . فقال لى ، « أليس لجدك فيها شيء ؟ » قلت له : « لا » . فقال وهو يتسم : « جميل » .

وصمتت سعدية ، وقال جدها يستحثها على متابعة حديثها :
— ثم ماذا حدث ؟ .

— لا شيء .

فقال الشيخ فى دهش :

— لا شيء ؟ ومن أين عرفت أنه يخطبها ما دام لم يقل لك ذلك .

فقالت سعدية فى بساطة :

— وهل قال بدوى غير ذلك عندما خطب خالتي فى السنة الماضية ؟ أنسيت أنه جاء إلى وقال لى : « بقرة من هذه ؟ » فقلت له : « بقرة خالتي خديجة » . فقال لى : « لها وحدها ؟ » فقلت له : « نعم لها وحدها » . وما كدت أدخل البقرة الحظيرة حتى جاء بدوى يدق بابنا يطلب الزواج ؟ . وتذكر الشيخ ذلك ، إنهم يتزوجونها كلما ملكت شيئاً ، حتى إذا ما بددوه هجروها ، فقال لخديجة :

— أتزوجينه يا خديجة إذا جاء يطلبك ؟ .

فقالت وهى تتظاهر بالخشجل :

— وهل لنا غير بيوت أزواجنا ؟

فقال الشيخ فى قسوة :

— إنه لا يريدك لنفسك ، ولكنه يريدك حتى يستولى على غنمك .

فقال في بساطة :

— ولو ، وهل يتزوج الرجل المرأة إلا لجمالها أو لمالها ؟

فقال الشيخ إبراهيم في حيرة :

— والله لا أدرى ما الذى ينقصك !

فقال في إيمان وقد برقت عيناها بيريق السعادة :

— ظل رجل خير من ظل شجرة .

— هذا إذا دام ظل الرجل .

فقال له تعارضه :

— ومتى دام ظل الشجرة ؟ ! .

فقال الشيخ مهزوما :

— لقد أعذر من أنذر ، وما جاء إلا ليستولى على مالك .

فقال تواسى نفسها :

— خير لى أن يأخذ زوجى ما أملك وأنا راضية ، من أن يأخذه الحاكم منى

عنوة بعد أن يجلد ظهرى .

وأفحم الشيخ فسكت ، وسمع طرقا على الباب فقال :

— افتحى يا سعدية ، هذا حامد قد جاء .

فأسرعت إلى الباب ، وغابت قليلا ثم عادت تقول وهى ترنو إلى خالتها فى

خبيث :

— علوان قد جاء ، وهو يطلب مقابلتك يا جدى .

وتحرك الشيخ فى بطء وهو يغمغم :

— أمرى الله .

وتدفقت الدماء الحارة إلى وجه خديجة فتورد ، واقتربت سعدية منها
وقالت :
— مبارك يا خالة .

فرفت على شفتي خديجة ابتسامة عريضة ، وتمتمت في سعادة :
— ليت لي مال قارون أنفقه على الأزواج .



دق الباب في رفق ، ومرت لحظات وهو يحس قلقا ، فقد تصرم النهار
ووفد الليل وهو يخشى أن يكون متطفلا بهذه الزيارة على الأسرة المكدودة التي
تنفق نهارها في كد وتعب ، وفتح الباب وظهرت سعدية بقامتها الممتلئة ،
ووجهها الأسمر الفاتن ، وقد تدلت ضفیرتاها على صدرها ، فلما وقعت
عينها على يوسف أشرق وجهها بابتسامة ترحيب وإن لم تنبس بكلمة ،
فأحس دمه يتدفق حارا إلى وجهه ، وقال في صوت خافت :

— الشيخ إبراهيم موجود ؟

فقالت سعدية وهي تفسح له الطريق :
— تفضل .

ودلف من الباب ، وسار في دهليز قصير ، ثم جلس على المصطبة وهو
يرقب بطرف عينه سعدية التي غابت في الظلام ، ومرت لحظات قصيرة وفد
بعدها الشيخ وهو يحمل في يده مصباحا ، فلما وقعت عيناه على الفتى قال في
ترحيب :

— أهلا وسهلا .

وجلسا يتسامران ، فدفع يوسف بالكتاب إلى الشيخ وهو يقول :
— أشكر لك هذه الساعات التي عشتها وأنا أقرأ هذا الكتاب ، كانت متعة
للنفس .

وصمت يوسف قليلا ثم قال كالحالم :
— كلما قرأت كتابا في التصوف أحسست رغبة في أن أعزل الناس وأن
أعيش وحدي أجاهد نفسي ، وألا أتكلم مع أحد إلا إذا دعتني الضرورة إلى
الكلام ، فإذا هفت نفسي إلى الناس ذهبت إلى حلقات الذكر أهم بالسماع
والوجد والرقص .

فقال الشيخ في رقة :

— ليس هذا من الإسلام في شيء ، فليس في الإسلام غلو في ترك الدنيا
وهي قوام مصالح الخلق ، ولا الإغراق بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر
الاختياري ، ولا الهيام والرقص .

فقال يوسف في عجب :

— أليس هذا هو التصوف ؟

— لا يا بني ، فالتصوف الحق هو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن
الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر
ومكارم الأخلاق .

— ولكن كتب التصوف كلها تتحدث عن الهيام والوجد والرقص .

— التصوف الحق هو تزكية النفس ، وتطهير القلب ، ومراقبة الله تعالى
في الأفعال والأقوال ، ولكن الشيطان قد صد الناس عن العلم ، وأراهم أن

المقصود العمل ، فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات .

فقال يوسف في ثقة :

— إنني كلما خلوت بنفسى وجاهدت رغباتى شعرت كأن حجبا كثيفة تتمزق عن حسى .

ودخل حامد ، وجلس بالقرب منهما يصغى إلى حديثهما ولكنهما لم يحسا به ، قال الشيخ إبراهيم :

— تضعف الخلوة سلطان الشاعر ، فينعكس نور الأبصار إلى البصائر فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى إنه ليزج به في عالم الخيال فيرى في يقظته ما لا وجود له في الخارج ، ويسمع من نفسه تارة ، ومن الأرواح التى تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وإن كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما أنه لا يمكن للرجال أن يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة وألم ، ويتبع هذه الأحوال معارف صحيحة وأفهام دقيقة ، في تخيلات وأوهام كثيرة يجد لها صاحبها لذة عظيمة يحترق في جنبها ما سواها .

وتكمل حامد وهو ينظر إليهما وقد اتسعت عيناه ، ولم يطق المكث فقام وغادر المكان ودخل إلى القاعة ، فقالت له سعدية :

— لماذا تركتهما ؟

فقال حامد وهو يلوى شفته السفلى :

— لو بقيت معهما لطار البرج الباقي من عقلى ، لا يمكن أن يكون حديثهما وكلامهما كلام عقلاء .

فقال سعدية وهي تبسم له :

— ماذا يقولان ؟ .

فقال حامد وهو يهز كتفيه :

— كلام فارغ كثير ، كل ما وعيته منه أنه الإنسان قد يرى ما لا وجود

له ، ويسمع كلاما لا يسمعه غيره وإن كان إلى جانبه .

ومد يده يتحسس سعدية ، فقلت له سعدية في زجر حبيب :

— ماذا تفعل ؟ .

— إنني أراك وأخشى ألا يكون لك وجود .

وضحكت ضحكة ناعمة فقال :

— وأسمع ضحكائك ، ويا ليت لا يسمعا أحد غيري وإن كان إلى

جانبي .

هبّت الريح باردة عاتية ، ونشر الليل حجبته ، فلاذ الناس بدورهم يحتمون بها من البرد القارس الذى كانت ترتجف منه الأبدان ، وتصطك الأسنان . وجلست خديجة فى بيتها ترقب عودة علوان ، فقد خرج مع الفجر ولم يعد حتى الآن وقد انقضى من الليل ثلثه .

وأصاحت سمعها ، فكانت كلما سمعت حركة رفعت رأسها وأرهفت حواسها وتحفزت للهرولة صوب الباب إذا ما دقه زوجها ، ولكن كانت الأصوات تتلاشى دون أن يمس أذنيها الصوت الحبيب الذى ترقبه متلهفة . . وتقضى الوقت بطيئا وهى فى جلستها بالقرب من الباب ، فكاد البرد يعصف بها ، فنهضت متثاقلة وذهبت إلى القاعة ، واعتلت ظهر الفرن وتمددت فوقه فأحست الدفء اللذيذ يسرى فى جسمها ، وإذا بها تشرد وتهيم فى دنيا خيالها فتفرغ على شفقتها بسمة رضى واستسلام .

راحت تتذكر الشهور الجميلة التى أمضتها فى دار علوان ، إنها تمضى سحابة يومها فى عمل مضمّن شاق ولكنها ما كانت تتملل ، فهى تعمل ليرضى عنها علوان ، فرضاه غاية ما تصبو إليه ، إنها لتذكر اللحظات السعيدة التى يحتويها بين ذراعيه المقتولتين فتغمرها لذة عارمة .

إنها تحب زوجها وتتمنى أن تعيش كل حياتها فى ظله قانعة راضية . تزوجت قبله ثلاث مرات ، ولكنها لم تشعر نحو أحد أزواجها بمثل هذا الحب

الطاغى الذى استبد بها . كانت شابة وكانوا شبانا ، ولكنها اليوم قد بلغت الخامسة والأربعين وزوجها يصغرها بخمسة عشر عاما ، إنه موفور الشباب والفتوة يملأ عليها دارها بهجة وأملا متجددا .

وانقضى من الليل نصفه ولم يعد علوان ، فإذا بخاطرة بغیضة تندسس إلى رأسها فتقطع حبل أحلامها الوردية وتهمس فى جوفها ، إن علوان قد ذهب ولن يعود ، ذهب كما ذهب أزواج من قبله ، فنهضت مفروعة . ، وتلفتت مرعوبة ، وهبطت من فوق الفرن وراحت تجوس خلال الدار المظلمة الضيقة فى قلق ، ودخلت الحظيرة فربا قلقها وزادت مخاوفها ، كانت خالية ، فقد باع علوان جميع غنمها ولم يعد عندها ما تملكه أو يطعمه فيها .

واكتنفها أسى عميق ، كانت على يقين فى قرار ضميرها أن علوان ما تزوجها إلا من أجل مالها ، ولكنها فى غمرة النشوة نسيت ذلك أو جاهدت لتنساه ، فما كانت تظن أن تتبدد أغنامها سريعا ! .

وأحققها استسلامها لآسها فأخذت تؤكد لنفسها أنه سيعود ، وأنه ما عاقه عن العودة الليلة إلا البرد الشديد ، فمن يدرى ، قد يكون اضطر إلى المبيت عند أحد أصدقائه فإذا ما أشرقت الشمس وبعثت الدفء فى الكون عاد إلى داره معتذرا عن الليلة التى أمضاها مرغما بعيدا عن أحضانها .

وأفرخ روعها بعد أن انخدعت راضية لأوهامها ، فاسترسلت فى أحلامها وأخذت تفكر فيما تقول له عندما يعود فى الصباح وفيما تقعله لتفصح عما يکنه له فؤادها ، رأت أن ترتبى بين ذراعيه وأن تغمره بقبلاتها ولكنها طردت هذه الفكرة من رأسها ، فهى وإن كانت تشتبه ذلك إلا أنها عرفت بغريزتها الأنثوية أنها لو فعلت ما تحبه وتتمناه لأطمعه ذلك فيها وشجعه على السهر

وترك الدار ليالى وأياما وهى لا تطيق بعده ، فعزمت على أن تبدى غضبها وتتدلل حتى يترضاها ويعدها أنه لن يعود إلى مثل هذه الفعلة .

وسرى صوت المؤذن يؤذن بالفجر ، وارتفع صياح الديكة ، وبدأت الدنيا تتمخض عن مولد يوم جديد ، فعادت مخاوفها تنبثق فى أغوارها وتعصف بها . خطر لها أن تخرج تبحث عنه وتنقب ، ولكن أين تتوجه الساعة وما أشرقت الشمس بعد ؟!

وجلست ضيقة الصدر حائقة ، تضنيها مخاوفها وتخزها خواطرها ، حتى إذا أريقت الشمس من الكوة الوحيدة فى القاعة هبت كالعاصفة ، واندفعت فى طرقات القرية تتلفت ، تنفرس وجوه الخارجين إلى حقولهم لعلها تجد من شغل به قلبها .

وراحت تمر على أصدقائه تسألهم عنه ، وتدور على دكاكين القرية والمقهى المطل على الطريق الزراعى ، ومشى التعب فى أوصالها ولكنها لم تركز إلى الراحة ، كان قلقها يعذبها ، ولحت أحد أصدقائه فهرعت إليه وسألته فى لطفة : — أرايت علوان ؟ إنه لم يعد إلى الدار منذ خرج فى صباح البارحة .

فقال لها فى هدوء :

— سافر .

ف قالت له وقد أحست قلبها يغوص فى قدميها :

— سافر ؟! إلى أين ؟

— إلى مصر .

— ومتى يعود ؟.

— لا أدري ، قال لى إنه مسافر ليجث عن عمل .

وعشش اليأس فى قلبها فأطرقت ، وانطلقت أسيفة . ذهب علوان كما ذهب أزواجها الثلاثة قبله ، وتقلص ظله ولم يبق لها إلا إبراهيم ، فسارت إلى دار أبيها لتعيش فيها . تكذب وتعمل وتدخر ثمرة جهودها لتشتري بما تدخره ما يغرى رجلا من الرجال المحرومين على أن يتزوجها ، فتعيش فى ظله ليالى وأياما حتى يتم له الاستيلاء على مالها وتبديده ثم يفر منها بعد أن يخلف لها ذكريات عزيزة تحيا عليها فى سنى الجذب والكفاح !

٧

انطلق يوسف بقامته الطويلة ووجهه الأسمر الدقيق وجلبابه الأبيض ، وقد وضع على رأسه عمامة صغيرة ، وما مد بصره إلى الحقول المترامية حوله حتى انقبض صدره ، فالأرض السوداء قاحلة ، جفت فيها الأعواد وارتمت على جنبها ميتة ، والصبية يغدون ويروحون عابسين فى ثيابهم الممزقة وقد جلس النساء عند التربة يغسلن ثيابهن صامتات مطرقات ، فإذا ما خطر لإحداهن أن تطلق لسانها عددت تشكو الزمان الذى مال ، والرجال تلعو وجوههم غيرة ، يفزعون من الغد إذا طاف برعوسهم ، فما الغد إلا سياط لإسماعيل تمزق أبدانهم لتتدفق قطرات أمواهم أنهارا فى خزائنه الخاوية .

وعبر الجسر وسار يغذ السير ، فلما لاح له شجرة التوت والساقية تمهل يتلفت وقد خفق قلبه ، كان يبحث بعينه عن سعدية فما جاء إلا ليوذعها قبل أن يرحل ، وإن خادع نفسه وأوهمها أن الوفاء للشيخ إبراهيم هو الذى جعله

يقطع هذه المسافة الطويلة على قدميه تحت وهج الشمس الحامية .
ولحها بالقرب من شجرة التوت فاتجه إليها متفتح النفس ، يحس ديبب النمل
يسرى في روحه ، وإحساسات لذينة تمور في جوفه ، حتى إذا ما دنا منها
وأحست قربه ورنّت إليه بعينها السوداوين الواسعتين في دهش ، دثره
اضطراب ، ورفّت على فمه بسمة حائرة .
وأشرق وجهها عن اللؤلؤ النضيد ، فسكن قلقه ورد إلى طبعه فقال في
طلاقة :

— حان ميعاد رحيلي فجئت أودعكم .

فقالّت سعدية وهى تنظر خلفها :

— تريد أن تودع جدى ؟ إنه هناك .

فقال وقد لمعت عيناه ببريق أخاذ وتهدج صوته قليلا :

— جئت لأودعكم جميعا ، فقد أحسست في الأيام التى كنت أزورك فيها

أنى صرت واحدا منكم ، يا طالما شعرت أنكم أقرب إلى من أهلى .

وصمت قليلا وسعدية تنظر إليه في شروء . فقد أحست حرارة حديثه

وقرأت في عينيه ما لم ينطق به لسانه ، كانتا تصيحان أنه ما جاء إلا ليوذعها

هى ، فتدفق الدم إلى وجنتيها واشتد وجيب قلبها ، واستشعرت غبطة يغلفها

قلقى ولم تنبس بكلمة ، وأراد أن يقول شيئا ، أن يمد حبل الحديث فقال :

— ماذا تريد من مصر ؟ .

فقالّت في برائة :

— أريد أن أراها ، إن جدى يحدثنى عنها حديثا عجيبا حتى حببها إلى ،

ليتنى أراها يوما .



ورنت إليه بعينها السوداوين الواسعتين في دهش ، دثره اضطراب

وهم بأن يقول لها مداعبا : « تعالى معي » ولكنه كبح جماح نفسه وقال :
— سأقرأ لك الفاتحة في الحسين .

فقالت له متمهلة :

— وأرجو أن توقد لى في مسجد السيدة زينب شمعة .

فقال لها وهو يبتسم :

— إن شاء الله .

وانطلقا صوب الشيخ وحفيده ، فلما رآهما حامدا انقبض صدره وتحركت
عقارب الغيرة في جوفه فعبس وقطب جبينه ، ولم يستطع أن يدارى ما به
فصاح :

— سعدية ! سعدية ! .

فاتجهت إليه وقالت له :

— ماذا تريد ؟ .

فقال في غضب وحدة :

— ما الذى جاء به إلى هنا ؟

— جاء ليودعنا قبل أن يرحل .

فقال وهو يحرك يده في ضيق :

— مع السلامة .

واتجه الشيخ إبراهيم إلى يوسف وهو يرحب به :

— أهلا بولدى ، ما الذى جاء بك في هذه الساعة ؟ .

— جئت أودعكم قبل أن أرحل ، سأسافر في قطار الساعة الرابعة .

فقال الشيخ في استسلام :

— الخيرة فيما اختاره الله ، كنت أحب أن تنجو بنفسك وتبتعد عن الأذى :

ثم ابتسم ورتل :

— الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ومد يوسف يده يصافح الشيخ ، فأخذ الشيخ يصافحه وقد بان التأثر في وجهه وإقبال في رقة :

— مع السلامة ، أحب أن أسمع عنك كل خير .

— ومد يده إلى حامد فتناولها في تراخ ، والتفت إلى سعدية فإذا بوجيب قلبه يشتد ، وإذا بجنان دافق يفيض من عينيه ، ومد إليها يده وصافحها في رقة فأحس حامد كأن ناراً ترعى في جوفه ، وتقلصت يده على فأسه وتمنى من كل قلبه أن يرحل سريعا .

وانطلق يوسف وقد انمحت كل المشاهد من رأسه ولم تبق إلا صورة سعدية ، كانت تملأ الفضاء أمامه وتتخيل له في كل ما يمد إليه بصره ، فقد ملأت أقطار نفسه واستولت على لبه وتفكيره .

وقف الشيخ إبراهيم يتلفت ، وقد تفرقت في عينيه الدموع واضطرب صدره بالحنق والضيق وران على وجهه الأسى العميق . كان ينظر إلى أرضه التي تعهد بها بجهده وحرثها بعرقه فيراها ميتة يخيم عليها الخراب ، إنها يابسة صائدة تتلف إلى الماء ، ومن أين له أن يرويه إذا كان الأجانب قد تحكموا حتى في الماء !.

استكان الخديو إسماعيل للأجانب ، فتغلغلوا في الدولة وتحكموا فيها يراقبون مواردها وأوجه الإنفاق فيها بحجة ضمان ديونهم ، ولم يقف تدخلهم عند وظائف الدولة بل امتدت مخالبهم إلى منابع الثروة فراحوا ينهلون منها في نهم وجشع دون أن يصدهم أحد أو يزرجرهم زاجر ، وجعلوا يستبدون بالشعب ويمتصون دمائه دون أن يحرك الخديو ساكنا ، ولماذا يتحرك ما دام كل غايته أن يرضوا عنه وأن يغفلوا عيونهم عن مظالمه .

كان بولينو باشا من الأجانب المقربين من الخديو ، وكان هذا كافيا ليطلق يده في الدولة يفعل ما يريد ليثري ، فاشترى مضخة بخارية ترفع الماء وأغلق بنفذه التربة ، وأخذ يبيع الماء للأغنياء في أيام التحريق ، ويبيعه للفقراء في أيام الفيضان ، وما كان أحد يجأ بالشكوى من ذلك الاستغلال المهين ، ولمن يشكو ؟ فرجال الدولة الكبار قد سكتوا على الظلم وآثروا العافية ما داموا يحصلون على نصيبهم من الأسلاب ، ورجال الدين مالوا مع السلطان ابتغاء

مرضاته طمعا في كساوى العيد وهباته التى ما كانت تغنى أو تسمن من جوع .

· أحق ذلك الظلم الشيخ إبراهيم فراح الغيظ يمحور في جوفه ، وضايقه أن يستكين لذلك الطغيان فتارت ثائرتة ، وخطر له أن يحطم ذلك الهوان ولكنه أحس أنه وحده أضعف من يقوض دولة الجور ، فرأى أن يجمع جيرانه المستضعفين وأن يكتلهم ليجعل من ضعفهم قوة ، وأن يقودهم في ثورتهم لعله ينتزع من أنياب الوحوش بعض ما سلبوه منهم من حقوق .

وبعث حامدا إلى جيرانه يدعوهم لموافاته تحت شجرة التوت ، ليبايعوه على مقاومة ذلك الظلم الذى عصف بهم وزلزل الأرض تحتهم ، فراح الفلاحون يتقاطرون عليه ، والتفوا حوله وأعاروه سمعهم ، فقال لهم في حماسة وانفعال : — إن الحكومة تسومنا الحيف والجور وتنزل بنا الخسف والذل ونحن صابرون ، وتنزع منا قوتنا وقوت عيالنا بالمقرعة والسوط ونحن راضون ، ويا ليت الأمر اقتصر على الحكومة ، بل زاد الخطب إذ أطمع استسلامنا الأجانب فجعاءوا يتحكمون فينا ، يستغلون ضعفنا ويسلبون أموالنا دون أن نشور ، لماذا نصبر ونستكين ؟ لماذا نرضى الهوان ؟ ماذا ننتظر ؟ .

هذا بولينو باشا أغلق التبعة وأقام آلهة الجهنمية ليرغمنا على أن نشترى منه ماء النيل ، انظروا إلى أرضنا العزيزة تموت أمامنا من الظمأ والماء يجرى على بعد أمتار منا ، لماذا نصبر على هذه الضعة ؟ لماذا نرضى بهذا الهوان ؟ هبوا من غفلتكم ، انفضوا عن أنفسكم غبار الذل والعار ، سيروا معى إلى التبعة لنفتحها وأنف بولينو راغم ، فقد أجرى الله لنا ماء النيل ولم يجره للمستغلين

الجلشعين ، سيروا .

وانطلق الشيخ إبراهيم على رأسهم وقد تدفقت الدماء حارة في عروقهم ، وأسرع حامد ليلحق بجده ، حتى إذا ما لاحت التربة والسد الحائل بينهم وبين مائها ، اندفع حامد كالعاصفة يعدو وانطلق الشبان خلفه ، فلما بلغوا العجلة التي تفتح السد راخوا يديرونها في حماسة ، فتدفقت المياه في التربة وجرت إلى الحقول تحيي مواتها فانتعشت النفوس وهزها الطرب ، وارتفعت صيحات الفرح ، ولكن لم تدم الغبطة طويلا فقد ظهر رجال بولينو المسلحون ، جاءوا لينعوا فتح التربة .

ودارت معركة بين الرجال ، وقرعت الهراوات الهراوات ، وتشابك الرجال بالأيدي واقتتلوا على الماء ، وشج رأس حامد وسال دمه على وجهه ولكنه ظل يقاتل قتال المستميت ليمنع إغلاق التربة .

وأز في الجو صوت الرصاص فانقبض صدر الشيخ ومن معه حتى إذا ما ابتعدوا عن ميدان المعركة راح يتلفت يبحث عن حفيده ، فلما وقعت عليه عيناه ورأى الدم ينبثق من رأسه ، ذهب إليه وقال له في صوت أسيف : — في سبيل الله دمك يا حامد .

وانطلقوا مطرقين يلفهم حزن عميق .

عاشت خديجة تنلفت ، كانت إذا انطلقت في الطريق ولحت شابا مقتول
 الساعد قوى البنيان خيل لها وهمها أنه علوان ، فتغذ السير لتلحق به خافقة
 القلب ، وتتفرس في وجهه ثم تغض من بصرها وقد انقبض صدرها حسرة ،
 وكانت إذا ما ذهبت إلى السوق وما أكثر ما تذهب إليها في هذه الأيام ، لتبيع
 الدواجن التي تربيها وتدخر ما تربحه لتغري به رجلا يوما تعيش في ظله . إنها تنقب
 عن علوان ، فهو وإن فر منها ما زال يستولى على تفكيرها وحواسها ، إنها
 لا تستطيع أن تنسى أبهج لحظات حياتها ، اللحظات التي عاشتها معه بكل
 مشاعرها وإحساساتها ، اللحظات التي نسيت فيها كل شيء إلا نفسها .
 وكانت إذا سمعت همهمة في جوف الليل ، أو طرقا على الباب أو همت
 روحها أن علوان قد جاء يصلح ما بينه وبينها ، فتصيح سمعها منتشية
 مضطربة ، أو تهرع إلى الباب تفتحه يغشاها قلق لذيذ ويسرى فيها أمل نابع
 من وحيها ، ولكن سرعان ما تبدد الأوهام عن وجه الحقيقة المرة التي تقوض
 أحلامها .

كانت تعيش في الذكريات ، وتحيا على أمل ، ولكنها ما كانت تستسلم
 بكليتها لأوهامها ، كانت تكد وتكدح وتعمل وتكاد تحرم نفسها من قوتها
 لتدخر كل ما تستطيع أن توفره ، فإذا كان علوان قد هجرها فما أكثر الشبان
 الذين يقبلون أن تعيش في ظلهم ما دامت تنقدهم الثمن .
 (قلعة الأبطال)

ستصبر حتى إذا ما أصبحت تملك ما يجذب إليها رجلا بعثت إلى علوان أينما كان من يفاوضه على تطليقها على أن تبرئه من كل ما تستحقه قبله ، فما كانت في حاجة إلى نفقة ، ولكنها تفتقر دائما إلى من تجنى ثماره وتتفيا ظلاله .

وغمرت الشمس الدنيا فنهضت خديجة تحمل الطعام ، وخرجت إلى الحقل ، وفيما هي منطلقة في طريقها لحت أباها الشيخ وحامدا وسعدية وشيخ البلد وجاني الضرائب وبعض الخفراء وذلك المرائي اليوناني الذي كان يسير في ركاب الجاني أينما ذهب ، مقبلين ، فدثرتها رهبة ، وخفق قلبها فزعا ، حذرت كل شيء ، جاءوا ينتزعون من الشيخ الضرائب وما كان يملك ما يدفعه .

وسارت معهم مطرقة قد لاح في وجهها الهم وحق بها الضيق ، وسيطر على الجميع سكون بغض ، حتى إذا بلغوا الدار دخل الجاني وشيخ البلد وبعض الخفراء ينقبون فيها عما يفى بالضرائب ، ولكنهم لم يعثروا على شيء فقال الجاني في حدة :

— إما أن تدفع المال الآن أو ترهن له أرضك ليؤدي المال عنك .

والتفت إلى اليوناني القصير المنتفخ الكرش فإذا بريق الجشع يشع من عينيه ، وقال الشيخ إبراهيم في صوت خافت :

— ليس عندي ما أدفعه الآن ، أمهلوني شهرا .

فقال الجاني في سخرية :

— لو أمهلناكم جميعا لحربت البلاد ، إما أن تدفع أو تتركه يؤدي دين الحكومة عنك .

فقال الشيخ في حدة :

— لن أرهن أرضي أبدا ما دام في نفس يتردد .

فقال الجاني وقد لوى شفته السفلى هزعا :

— سنرى .

والتفت إلى شيخ البلد والخبراء وقال لهم :

— اجلدوه .

وقال للشيخ إبراهيم معتذرا :

— ما كنت أحب أن يجلد شيخ كبير مثلك ، ولكنك عنيد .

وتحرك خفيران لينفذوا أمر الجاني ، فأحس حامد دماؤه تفور في عروقه ولم يستطع صبرا فهجم على الرجلين ليحول بينهما وبين جده ، فثار الجاني ولطمه على وجهه وصاح فيه :

— يا فلاح ، إذا صدرت منك أية حركة أمرتهم أن يجلدوك حتى تموت .

وحدج حامد الجاني الجركسي في غضب ، وإذا بسعدية تجذبه من يده وقد

ملأت الدموع مقلتيها .

ووضعت قدما الشيخ في الفلقة ورفعتا إلى السماء ، وهوى خفير بالعصا

عليهما ، فأحست خديجة كأن خنجرًا يمزق فؤادها ، وزجر حامد وضغط على

يد سعدية في غضب ، ولو طاول نفسه لهجم على الجاني الجركسي يفترسه ،

ولكنه كبج جماع عواطفه التي كانت تضغط على رقبته حتى تكاد تخنقه .

وارتفعت العصا لتهوى على قدمي الشيخ ، فدارت الدنيا بخديجة وصاحت

مفزوعة :

— اتركوه .. اتركوه .. سأدفع ما تريدون .

ومدت يدها في جيبتها وأخرجت النقود التي ادخرتها لتشتري بها ما يغري

شابا على الزواج منها ، لتعيش في ظله تختلس من الزمن القاسى ساعات الهناء
التي تدفع ثمنها من عرق جبينها ، وتقدمت من الجاني ودفعت له ما ينقذ أباها
من العذاب المهين ، ثم انطلقت إلى الدار تبكى وتتحب ، أحقها أن ترغم على
أن تدفع للسلطان قهرا ما كانت تشتئى أن تدفعه لشاب وهي راضية طيبة
النفس

ونهض الشيخ إبراهيم فأسرع إليه حامد وسعدية ، فسار يتوكأ عليهما باسر
الوجه ، كان يحس مهانة ، ظل صامتا يحرق أنياه في غيظ ثم قال :
— والله لا أدرى كيف ننام على هذا الضيم ؟ كيف نرضى هذا الهوان ؟ هل
أعقمت البلاد ؟ إن إسماعيل ظالم فاجر ، وإن استبداده مخالف لتعاليم الدين ،
فسلطان الحاكم مستمد من حسن قيامه بتنفيذ الشريعة ، ولكنه جعل يسومنا
سوء العذاب لبيتز أموالنا ينفقها على شهواته وملاهيته ، إننى أنا الذى أبغض
إرافة الدماء على استعداد لأقتله ، والله إني في حيرة ، ألم يعد في البلاد أحرار
يثورون لكراماتهم ويقتلونهم ؟ .

والله لو أتيت لي فرصة ما أحجمت وما ترددت لحظة .

ثم رفع وجهه إلى السماء وقال في حرارة :

— اللهم انصرنا على القوم الظالمين .

ألقت نفسية إسماعيل الإذعان لمطالب الدول الأجنبية ، وذل حتى أصبح أسيرا في أيدي إنجلترا وفرنسا ، وأمعن في الخضوع حتى قبل أن تحكم مصر وزارة أوربية وزير ماليتها السير رفرز ولسن ، ووزير أشغالها مسيو دي بلنير ! .

اندك آخر حجر في صرح استقلال الحكومة المصرية ، ورأت الدول الأوروبية الفرصة سانحة للاشتراك في نهب هذه الغنيمة الباردة ، ف راحت إيطاليا تطالب بنظارة الحقانية ، والنمسا تطالب بوزارة المعارف ، ما دام إسماعيل المستبد الفخور قد طأطأ رأسه بعد أن غرق في الدين وقبل أن يكون خاضعا لولاية الطامعين في البلاد ، ولولا أن إنجلترا وفرنسا ما كانتا ترغبان في أن تقاسمهما الدول الأخرى هذه اللقمة السائغة لأقام العدل في البلاد الإسلامية وزير إيطالى ، ولأشرف على تثقيف أبناء المصريين آخر نمسوى ، ولكنهما رأتا أن ترضيا الدولتين ، فعين إيطالى مراقبا عاما للحسابات ، ونمسوى مساعدا لناظر المالية .

كان السير رفرز ولسن وزير المالية على صلة وثيقة ببيت روتشيلد ، فكان أول ما فعله أن رهن الأطنان التى نزل عنها إسماعيل وأسرته لذلك البيت المالى ، وعقد معه قرضا بثمانية ملايين ونصف من الجنيهات ، وكان من المتفق عليه أن تدفع منه مرتبات الموظفين المتأخرة ، ولكن السير ولسن لم يفعل بل

دفع منه بعض الأقساط للدائنين ، فما كان وزير المالية البريطاني ليسهر على مصلحة الوطنيين بل جاء يأخذ منهم وإن كانوا في ضيق ليعطى الأجانب . واستمرت الضرائب تجبى بالسوط والمقرعة ، فاشتد الكرب بالناس ، وجاء من القرى مئات من المشايخ يمثلون قراهم واحتشدوا أمام أبواب النظارات ، فلما لحوا نوبار باشا رئيس النظار تحركت أحقادهم ، رأوا فيه الرجل الأرمنى الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى وضعتهم فى قبضة المرابين اليونانيين ، تلك المحاكم التى كانت تجردهم من كل ما يمتلكونه قبل أن يتسع لهم الوقت ليعرفوا بأى شئ هم فى الحقيقة مطالبون ، فقد كان قضاتها أجانب ومداولاتها بلغات أجنبية لا يفقهونها ، ولو طاورعوا إحساساتهم لفتكسوا بنوبار ، ولكنهم ما جاعوا إلا ليتظلموا مما هم فيه ، فهرعوا إليه يسألونه تخفيف الضرائب فوعدهم خيرا ، ورأوا السير رفرز ولسن فأسرعوا إليه يلتمسون منه أن ترفع عنهم سياط الجبابة الغلاظ ، فابتسم لهم ووعدهم خيرا ، وعادوا إلى قراهم يحملون الوعود المعسولة .

وحان أوان دفع الربع الثالث من ضرائب العام ، وكانت سنة شديدة فراح الجبابة يجوبون القرى يحصلون الضرائب بالسوط والمقرعة ، بينما كان المصريون يموتون على قوارع الطرق من الجوع ، وقد تركت أراض شاسعة جافة يابسة ميتة يعوى فيها الخراب بعد أن هجرها أصحابها من ثقل الأعباء المالية ، وكان الفلاحون يغدون ويروحون على أقدامهم فى ذلة ، باعوا دوابهم ، وباع النساء جليهن ، وغصت أقلام الرهون بالمرابين يحملون وثائقهم ، والمحاكم المختلطة لا عمل لها إلا النظر فى قضايا إغلاق الرهون إجابة لطلب هؤلاء المرابين . الناس فى ضيق ، لا يجندون ما يستر أجسامهم ويقيم زمهرير البرد فى

الشتاء وحر الصيف اللافح ، ولا ما يمسك أرقاقهم ، فقد كان الفيضان شديدا
عاليا حتى غمر الحقول وأتلف المحاصيل وترك الناس يترنحون من الجوع ،
كأنما غضبت الطبيعة على المصريين لاستكانتهم للذل ونومهم على الضيم ،
فتآزرت مع الظالمين لعل النائمين يهبون من سباتهم ثائرين في وجه الظلم
والطغيان .

وفي هذا الضنك والكرب الشديد كان إسماعيل يقيم الولائم الفاخرة
للأجانب في الكشك الخديوى القائم على سفح الهرم ، فكانت الأطعمة الشهية
تكس على الموائد ، وأفخر أنواع الشمبانيا تجرى أنهارا على مرأى من جمهور
من المصريين الجائعين الذين كانوا ينظرون وفي الحلق غصة ، وفي الصدر ثورة
مكبوتة ، وفي النفس مرارة ، وفي السرائر حنق شديد .

وخرج إسماعيل يتنزه كعادته كل يوم على جسر قصر النيل ، فانسابت
عربته الفاخرة المكشوفة يجرها جوادان كريمان ، وقد جلس الحوذى الإيطالى
فى مقعده شامخا بأنفه وعلى رأسه قبعته العالية ، وإلى جواره إيطالى آخر فى ثياب
مزر كشة وقد ربع ذراعيه على صدره ، وانطلق أمام العربية فارسان من فرسان
الحرس ، والتف حولها فرسان المماليك ، وأخذ الناس ينظرون إلى الركب
الفاخر فى فتور ، بينما كان شيخان يرمقان إسماعيل فى شرر وقد ملئ صدورهما
حنقا عليه ، كانا يحسان آلام الشعب ويعرفان حقيقة النكبة التى حلت
بالبلاد .

كان أحدهما فى الثالثة والثلاثين ، يلبس عمامة بيضاء وقفطانا ، رفيع القامة
أسمر اللون يلوح ذكاؤه فى عينين تنفذان إلى الأعماق ، والآخر فى الأربعين ،
أسمر اللون ربعة ممتلئ قوى البنية ، جذاب النظر نافذ اللحظ ، خفيف

العارضين مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الساقين ،
وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ، وسحته تدل على أنه ليس
مصريا ، كان عالما حكيما راح يجوب الشرق ينفخ فيه من روحه لينفض عنه
غبار الخنوع والاستسلام .

التفت إلى تلميذه وقال :

— لابد من خلع هذا الطاغية ، بل لابد من قتله وإراحة المصريين منه .
فقال تلميذه :

— هذا هو الرأى ، ولكن من يقتله ؟ .

— أنت ..

وانطلق السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده يتناجيان ،
ويفكران فى تخليص الناس من ذلك الذى يجر البلاد إلى هاوية الدمار .

أحس الخديو إسماعيل أن المصريين يمقتون حكمه ، وأنهم يتمنون ذلك اليوم الذى ينقشع فيه ظل سلطانه عنهم ، فأطرق يفكر فيما يفعله ليحول ذلك البغض العام إلى وزرائه الجدد الذين كان يمقتهم من كل قلبه ، بعد أن أصبح تحت وصايتهم لا يستطيع أن يمارس استبداده الذى ألفه ثمانية عشر عاما .

وكان السير رفرز ولسن أكثرهم بعدا من نفسه ، فهو يكرهه من كل قلبه منذ ذلك اليوم الذى اتهمه فيه ، وهو الخديو العظيم ، بأنه مسئول عن عجز فى الإيرادات قدره عشرة ملايين من الجنيهات ، وطلب منه فى مقابل ذلك أن ينزل عن أطيانه للدائنين ، بل وإرغامه على أن ينزل عن سلطته لمجلس نظاره ليكون هذا المجلس مسئولا عن أعمال الحكومة ، ولم يكتف السير رفرز ولسن بذلك ، بل فرض نفسه عليه فرضا وصار وزير مالىته ، وسلب منه أطيانه وسلطانه وأقام من نفسه وصيا عليه .

وراح إسماعيل يحصى أخطاء خصمه التى تدنيه من قبضة يده ، فقد أخذ السير رفرز ولسن يمسح الأراضى الزراعية وينفق فى ذلك الأموال الكثيرة ، فأفزع ذلك الفلاحين وأخافهم واعتبروه مقدمة لفرض ضرائب جديدة عليهم ، فحنقوا فما كانوا بقادرين على أن ينهضوا بالأعباء المالية الموضوعة على كواهلهم ، فكيف يفكر مجنون فى أن يزيد فى متاعبهم وأن يضع على عواتقهم أعباء جديدة ! .

وفكر ولسن في إيجاد التوازن المالى فمخفض مرتبات الموظفين المصريين ولم يخفض مرتبات الموظفين الفرنسيين والبريطانيين ، فقد كان شعار العصر أن يتحمل الوطنيون كل الغرم ، وأن يكون الغنم للأجانب وحدهم فالبلاذ لهم بقرة حلوب ، فملأ الاستياء النفوس ومار الخنق فى الصدور .

واقترح السير رفرز ولسن مصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليوناً ، فطاشت عقول أصحاب الأراضى ، وباتوا فى قلق واضطراب يوجسون خيفة من ذلك الوزير البريطانى الذى وقعت البلاذ فى قبضته ، فانضموا إلى الساخطين .

وحل أوان قسط مايو ، والخزانة المصرية خاوية ليس فيها ما يكفى لدفعه ، فراح السير ولسن يفكر فيما يفعله ليرضى الدائنين على حساب الوطنيين كعادته ، فقد كان ممثلاً لبيت روتشيلد يستمد منه التأيد ، وإن جعله سوء طالع مصر وزيراً للمالية ، فأرغم الوزارة على أن تأمر بتسريح ألفين وخمسمائة ضابط من ضباط الجيش فسرخوا بغير أن تدفع متأخراتهم ، ودفع القسط مما وفر من مرتباتهم ، فأفعمت قلوب الضباط بالحقد والغضب .

رأى إسماعيل أن يستغل كل ذلك ليتخلص من الوزارة الأوروبية ، فأرسل إلى جاهين باشا كنج من رجال البلاط ، فلما وافاه راحايتها مسان . وما خرج جاهين باشا من عند الخديو حتى أرسل إلى لطيف أفندى سليم زوج أخته ومدير المدرسة الحربية ، وجعلاً يتدبران الأمر ويفكران ويعملان الفكر ، وما افترقا حتى كانا قد اتفقا على كل شئ يحقق للخديو أربه ، ويطفىء نار الحقد المتلظية فى جوفه .

خرج طلبة المدرسة الحربية فى مظاهرة يقودها لطيف أفندى سليم

وانطلقت الهتافات مدوية ضد الوزارة ، فانضم إليها الساخطون يهتفون
منفسين عن مشاعرهم ، وبلغت المظاهرة ديوان الحكومة ، والهتافات تدوى
بسقوط الوزارة الظالمة التى لا هم لها إلا اضطهاد المصريين .

ولمح المتظاهرون نوبار باشا رئيس النظار يركب مركبته ، فانطلقوا إليه
صائحين :

— اصرفوا لنا حقوقنا من الأموال المتراكمة فى الخزائن .

وفاضت حماسة بعض الثائرين فاندفعوا إلى نوبار يلطمون وجهه ويجذبون
شاربه ، ولحقوا السير رفرز ولسن فى طريقه إلى مركبته فانطلقوا إليه يسبونه
ويلكمنونه ويشدون شاربه ، ثم قبضوا على نوبار باشا وساقوهما إلى وزارة المالية
وحبسوهما فيها .

وجاء إسماعيل محاط بحرسه ، ونظر إلى المتظاهرين وصاح فيهم أن
انصرفوا ، ولكنهم ثبتوا فى أماكنهم لا يتحركون ، فالتفت إلى على بك فهمى
أميرالاي الحرس وقال له :
— أطلق عليهم النار .

فراح الذئب المصرى يطلق النار فى الهواء فتفرق الضباط حائقين ، وأطلق
الحخديو سراح نوبار وولسن ، ثم انساب إلى القصر قرير العين ، فقد حسب أن
مؤامرتة نجحت وإن هى إلا ساعات حتى يتخلص من الوزارة الأوربية ومن
ذلك الوزير البريطانى المغرور .

وأعلن إسماعيل للملأ أنه ليس مسئولا عن الأمن ما دام نوبار باشا رئيسا
للوزراء ، وما كان بقادر على أن يفصح عن رغبته بتنحية السير رفرز ولسن
خشية أن يغضب الإنجليز . دار بخلده أن استقالة نوبار ستريحه من الوزراء

الذين يعملون معه ، ولكن نوبار استقال وبقي الوزيران الأجنبيان السير رفرز ولسن ومسيو بولنيير ، فقد أبلغ مسيو فيفيان قنصل إنجلترا العام الخديو أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار عملا شخصيا ، وأنها لا تقبل أن يترتب عليها تغيير في سير الأمور . وأضيف إلى القيود العديدة التي قيد بها قيد جديد ، أن يكون للعضوين الأوربيين اللذين في النظارة حق المعارضة المطلقة في كل ما لا يوافقان عليه وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ ، وأن يستشير إسماعيل حكومتى إنجلترا وفرنسا في اختيار نظاره الجدد .

ونام إسماعيل على الضيم بعد أن ذهب استقلال البلاد شعاعا ، وراح يفكر والغيط يأكل صدره فيما يفعل ليتخلص من السير رفرز ولسن ، بينما كان الضباط يفكرون في الثورة عليه وعزله لتخليص البلاد من شروره وآثامه بعد أن شد وثاقها بالديون وجعلها نهبا مباحا للأجانب .

انساب يوسف في طريق القرية المتعرج وقد علق في ذراعه بقبحة ، فقد جاء في إجازة يحمل إلى أهله وأحبابه بعض هدايا القاهرة ، وما استقر في الدار قليلا حتى راحت صورة سعدية تملأ رأسه وتحتل أقطار نفسه ، ويستشعر لهفة في رؤيتها والحديث إليها .

خطر له أن ينطلق إلى الحقل يقابلها هناك تحت شجرة التوت ، يناجيها ويحدثها بعض ذلك الحديث العذب الذي دار بينه وبين طيفها وهو عائد في القطار ، ولكنه رأى أن يترث حتى إذا مالت الشمس للمغرب وعاد الناس إلى دورهم ذهب لزيارتهم ، فهو في شوق إلى سعدية وإلى حديث الشيخ إبراهيم . وطاف بذهنه حامد فشرذ قليلا ، ثم لوى شفته السفلى في استخفاف ، فلو لا سعدية ما تذكره ولا شغل نفسه بالتفكير فيه لحظة ، فهو يراه فلاحا خاملا كملايين الفلاحين الذين جاءوا إلى الدنيا وذهبوا عنها دون أن يحس بهم أحد ، كالفقايح التي تطفو على سطح الماء لتنداح في المحيط .

وسرى في القرية خوار الثيران وثغاء الأغنام وهديل الحمام ، ثم سكن كل شيء وساد الهدوء ، فقد بدأ الليل يرشح غلاظه السود غلالة إثر غلالة . ونهض يوسف وفي جوفه قلق لذيذ يشتهي ، وسار كالمسحور حتى إذا بلغ دار الشيخ إبراهيم راح يطرق الباب في شوق وحنين ، وفتح الباب فأحس قلبه يكاد يقفز من فيه ، ورفت على فمه ابتسامة عذبة ، ومد بصره فإذا بمشاعره

الفؤارة تحبو ، لم تفتح سعدية له الباب كما كان يأمل ويشتهي ، بل فتحت له خديجة ، فقال لها في صوت خافت وهو يغض بصره :
— الشيخ موجود ؟.

فقالت له خديجة وقد فسحت له الطريق :
— أهلا وسهلا ، تفضل .

ودخل وجلس ، وراح يرفع رأسه متلهفا كلما مس أذنيه حفيف ثوب ، كان يرجو أن يراها . أن يحدثها قليلا قبل أن يدخل الشيخ عليه ، فعلى لسانه أحاديث كثيرة حنون يحب أن يفضى بها إليها ، ولكن الشيخ إبراهيم أقبل عليه فنهض يصافحه في شوق ، قال الشيخ :
— كيف أنت يا بني ؟ والله لقد افتقدناك .
— الحمد لله .

فقال الشيخ إبراهيم وفي صوته رنة ساخرة :
— وكيف حال الأزهر ؟
فقال يوسف في حماسة :
— إنه في ثورة .

فقال الشيخ في استخفاف :
— وكيف يثور الجهاد ؟!

— ارتفعت أصوات تدعو إلى تحرير الفكر من قيد التقليد .
— أصوات من ؟.

— أصوات السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده .
فشرذ الشيخ إبراهيم قليلا وقال :

— سمعت عن جمال الدين ، أليس هو الذى ألقى محاضرة فى الآستانة فرماه شيخ الإسلام بالكفر والزندقة ؟ .

— إنه هو .

— وماذا يفعل فى الأزهر ؟ .

— لا يفعل فى الأزهر شيئاً ، إنه يحدث الناس فى بيته ، يسخو إلى غير حد فى بذل كنوز حكمته إلى كل من حضر مجلسه وإن لم يكن من مريديها .

فقال الشيخ إبراهيم فى عجب :

— وكيف يحدث ثورة فى الأزهر إذا كان لا يحاضر فيه ؟ .

— تلاميذه ينشرون أفكاره فى الصحف وتلميذه القدير الشيخ محمد عبده ينشر آراءه بين الأزهرين .

— ما الذى أغضب الأزهرين منه ؟ .

— أغضبهم منه أنه يحارب جهودهم ، وأحنقهم أنه يدرس الفلسفة . إنه رجل قوى الشكيمة ، يرى أن الإسلام دين عام يناسب كافة الناس ، ويلائم جميع العصور والثقافات ، إنه يحلم فى أن يعيد للإسلام مجده وقوته .

— هل رأيته ؟ .

— ذهبت مع الذاهبين يوماً إلى بيته فى خان الخليلي ، وجلست أصغى إليهِ وأنا مأخوذ بحديثه العذب وعلمه الغزير . طريقته تختلف اختلافاً بيناً عن طريقة الجامدين ، إنه لا يقرأ النصوص وشرح المتون ، بل يتحدث حديثاً بنجلي للأفهام وترتاح إليه النفوس . إننى أذكر أنه كان يتحدث عن فلسفة التربية ، وأذكر أنه قال إن جميع الملكات الفاضلة الإنسانية إنما هى واسطة لطرفين متضادين ، لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة

أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة . وراح يضرب الأمثال ليقرب المسألة إلى الأذهان ، فراح يقول إن الشجاعة وسط بين الجرأة والخافة ، والسخاء وسط بين البذل والإمساك ، واستمر في درسه وما أحسب أحدا قام من عنده إلا وقد وعاه .

وسمع يوسف صوت أقدام فنظر ، فألقى أمامه سعدية وخلفها حامد ، فارتبك وصعد الدم إلى وجهه ، وخفق قلبه ، وجعل يرنو إلى سعدية لحظة وقد لاحت في عينيه الغبطة ، ثم قال في صوت مضطرب :

— أهلا وسهلا . كيف حالكم ! .

فقال حامد في غلظة وجفاء :

— الحمد لله .

ودار على عقبه وهم بالانصراف ، ولكنه ثبت في مكانه لما سمع يوسف يقول لسعدية :

— قرأت لك الفاتحة في الحسين ، وأضأت لك شمعة في السيدة زينب .

فقال الشيخ إبراهيم في حدة :

— هذه بدعة ، هذه وثنية ، إن هذا ليس من الدين في شيء .

— آسف ، ما كنت أعرف أنها بدعة قبل أن أسمع ذلك من الشيخ محمد عبده .

وانقشع غضب الشيخ وقال :

— يحارب الشيخ محمد عبده البدع !؟ .

— إنه يحارب البدع . ويحارب الجمود ، والأخذ برواية السلف في قبول العقائد من غير مناقشة أو اعتراض .

ورنا إلى سعدية فانقبض صدر حامد وخطر له أن يلطمه على وجهه ولكنه
كبح جماح نفسه ، وقال يوسف وهو يمد يده في جيبيه :
— أحضرت لكم معى أشياء متواضعة .

ومد يده بسبحة إلى الشيخ إبراهيم ، ثم قدم إلى سعدية عقدا من زجاج
أخضر وقلبه يرفرف بين جنبيه ، واستمر يرقبها مغتبطا : ولم يطق حامد صبرا
فانسل من الحجرة حائقا ثائرا يصصر على أنيابه في غيظ ، ويضغط على قبضته
كأنما كان يمسك شيئا يريد أن يهشمه .

وخرجت سعدية إلى القاعة تتحسس العقد في نشوة ، ولحت حامدا
منتصبيا وقد قطب جبينه ، فذهبت إليه وقالت له :

— لماذا تركتني وخرجت ؟

— لم أطق أن أراه وهو يأكلك بعينه .

فقالت في دلال :

— أتغار منه ؟

ولم يقو على أن يكتم شعوره نحوه فقال :

— لو طاورعت نفسي لفقأت له عينيه ، ولأرغمته على أن يجاور في زاوية

العميان .

البخور ينطلق في الغرفة الفاخرة الأنيقة التي تنم عن الغنى والبذخ ، إنها إحدى غرف قصر القبة الفاخر ، والأمير توفيق جالس خاشع وقد ارتسم في وجهه الاستسلام والإيمان ، وامرأة عجوز تتمم في حرارة وتلف المخمرة الفاخرة الدقيقة حول رأسه : إنها السيدة عائشة « الكوديا » تبخر ولي العهد وترقيه ، فما كان توفيق يخرج إلى زائريه قبل أن يتبخر فقد شب في الحريم وعاش بين النساء ، فاكسب منهن أبرز خصاله .

ونظرت السيدة عائشة إليه مليا ، ثم قالت في إخلاص :
 — أمنيته الوحيدة أن أعيش لأرقبك من عيون حاسديك يوم تصبح خديو مصر .

ورفت على شفتي توفيق الدقيقتين ابتسامة رقيقة ، وقال :
 — أدعو الله أن يقيقك لذلك اليوم .

— لست وحدى التي تنتظر هذا اليوم ، الناس كلهم ينتظرونه . لقد نزل بهم الكرب وحق بهم الضيق فأصبحوا يرون الخلاص مما هم فيه على يديك . السياط تمزق أبدانهم ، والحكومة تأكل أموالهم ، والمحاكم المختلطة تغتصب أراضيهم منهم لتعطى المرايين . الناس كلهم سناخطون ، إتنى ما دخلت بيتا من بيوت الأكابر إلا سمعت عبارات الاستياء مما وصلت البلاد إليه . إنهم جميعا يقولون إنك الأمل الأخير .

— اللهم وفقه ليحقق أمل الناس فيه .

وشرد توفيق قليلا ثم قال :

— إذا صرت حاكم هذه البلاد فسأكرس كل جهودي لتخفيف آلام الناس ، سأطلق لهم حرياتهم ، وسأؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وسأبطل السخرة ، ولن يكون السوط والمقرعة من وسائل حكمي .

فقالت السيدة عائشة في ثقة :

— لو أقربت من شعبك خطوة اقترب منك ذراعا ، ولو مددت له يدا مد لك آلاف الأيدي ، فهو شعب وفي لا يجحد الجميل .

ودخل حاجب في ثياب مزر كشة ، طويل القامة أسمر الوجه ، وقال :

— جاء السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده .

فقال الأمير توفيق وقد أشرق وجهه سرورا :

— مرحبا بالسيدان .

وخرجت السيدة عائشة ، وظل البخور يسمو في الغرفة ويدور في حلقات . وأقبل السيدان ، فلما دخلا عليه قام يستقبلهما ويرحب بهما ، وجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ، السيد جمال الدين الأفغاني يزين للأمير حكم الشورى ويبين له مساوئ الاستبداد ، والأمير توفيق يصغى إليه في اهتمام . وما انتهى السيد جمال الدين من حديثه حتى قال توفيق :

— متى وصلت إلى العرش فسوف لا أchied شعرة عن جادة الحكم

الدستوري .

وأتلج صدر جمال الدين فقد وعده ولى العهد بإدخال الحكم النيابي في البلاد ، فلن يكون حاكما مستبدا كأبيه ، بل سترك للشعب أن يحكم نفسه

بنفسه عن طريق نوابه الذين سينتخبهم ليمثلوه .

وانتهت المقابلة ، وقال الأمير توفيق لجمال الدين وهو يصفحه :

— إنك موضع أمل في مصر أيها السيد .

— وخرج السيد والشيخ محمد عبده من قصر القبة ، وانطلقا في الظلام بين

الحقول الخضر المترامية ، وراحا يتناجيان ويعلقان أكبر الآمال على الأمير توفيق . وسارت بهما العربة إلى الأركية ، وهبطا منها ودلفا إلى قهوة « البوسطة » حيث اعتاد السيد جمال الدين أن يقابل مرديه بها كل ليلة .

وأقبل محمود سامي البارودي وعبد السلام بك المويلحي وعلى بك مظهر وعبد الله نديم وجمهرة من المثقفين ، وراح السيد يتحدث وهم يصغون ، كان ينفث فيهم روح الثورة ، ويؤجج في صدورهم نار الحقد على حكومتهم الاستبدادية ، ويقنعهم أن الإصلاح لن يتم إلا على يد توفيق باشا .

كان السيد جمال الدين الأفغانى يثق بولى العهد ويحسبه كفؤا للنهوض بأعباء أمة تتردى في مهاوى السقوط ، وما كان ولى العهد يثق بنفسه ، فقد كان توفيق يرحب بالإصلاح ويجب أن تنال البلاد الخير على يديه ، ولكنه كان ضعيفا يخضع لأية إرادة أقوى من إرادته ، وباويل مصر يوم يلعب بتوفيق أصحاب الإرادات القوية ! .

هزت خديجة كتفها وقلبت كفيها في عجب ، ولاح في نصف وجهها
الذى أضاءته أنوار الذبالة الخافتة المرتعشة حركة امتعاض مشوبة بدهش ،
فقال لها سعدية :

— ماذا جرى يا خالتي ؟.

فقال خديجة وهي تمصص شفيتها :

— سمعت طرقا على الباب فذهبت وفتحته ، فألفت شيئا كبيرا ما أن
رأى حتى انفرج وجهه المتجدد ، واهتزت لحيته البيضاء ، وانفرج فمه عن
الخراب ، وقال في همس : مساء النور ، أين الشيخ إبراهيم ؟ اللهم اجعلها ليلة
مباركة ، وظل يحدج إلى بعينه كالصقر ، فقدته إلى المصطبة .

فقال حامد في حدة :

— ماذا جاء يفعل ؟.

فقال خديجة :

— لا أدري .

وقالت سعدية في خبث :

— ما طرق غريب بابنا لا ليخطبك .

فقال خديجة في فزع ، وقد نسيت أنها قد أشرفت على الخمسين :

— خطبة عزرائيل .

فقالت سعدية وهى تضحك :

— والله ما جاء إلا ليتزوجك .

فدنت منها خديجة وهمست :

— هل كلمك عنى ؟ .

— أبدا ، ولكن قلبى يقول ذلك .

فقالت خديجة فى غضب :

— قطع لسان قلبك !

ونبت فى قلب خديجة قلق ، فدنت من مكان الرجلين ووقفت فى الظلام تسترق السمع ، وجاءت سعدية والتصقت بها وأرهفتا آذانهما ، وسرى إليهما صوت الرجل الغريب يقول :

— ماتت زوجتى منذ شهور ، ولما كنت لا أحب أن أعيش عزبا فقد فكرت فى الزواج ، ورأيت أن أخطب امرأة تعرف قدرى . عرضوا على أن أتزوج فتاة صغيرة فرفضت ، فما كان لشيخ مثلى إلا أن يتزوج امرأة قريبة من سنه ، وقيل لى إن ابنتك قد طلقت من زوجها فبجعت أطلبها منك لنفسى . ارتجفت خديجة فى موقفها غضبا ، وراحت سعدية تغالب ضحكاتها فما كانت تقدر حقيقة مشاعر خالتها ، ولكزتها بكوعها ولكن خديجة كانت تتجرع غصصها فى مرارة ، وبلغ آذانها صوت الشيخ إبراهيم يقول :

— لا أستطيع أن أبت فى هذا الأمر وحدى ، سأخذ رأيها .

وإذا بخديجة تنفجر صائحة :

— لم أقل لكم لأننى أريد أن أتزوج .

وساد سكون قلق ، وشاءت سعدية أن تقطع هذا السكون فذهبت

وأحضرت القهوة ، وهمت بأن تدخل بها على الضيف الذى جاء يخطب خالتها ، فإذا بخديجة تجذبها بعيدا وتقول لها :
— والله لن يشرب قطرة ماء فى بيتنا .

وضحكت سعدية على الرغم منها وقالت :
— كيف ترفضين رجلا جاء إليك يطلب منك أن تعيشى فى ظله ؟ .
فقال خديجة فى حدة :

— لو كان له ظل مارفضته ، إنه كالشجرة الجافة التى سقطت عنها أوراقها فأصبحت عارية لا ظل لها ولا ثمرة .
فقال سعدية فى صدق :

— إنه رجل يعرف قدرك ، يطلبك لنفسك ولا يطمع فى شئ .
فقال خديجة لتقنع نفسها :

— ليته كان يطمع ! ماذا يستطيع هذا الشيخ أن يعطينى ؟ اللقمة ؟ إننى آكلها هنا ، أريد رجلا يغمرنى بخنانه وإن تقاضى منى الثمن .
فقال سعدية وهى تبحث بعينها فى المكان عن حامد :
— والله يا خالتي أمرك عجيب .

— لى عقلى ولكم عقولكم .
وسمع صوت الباب وهو يغلق ، فقالت خديجة فى راحة :
— ذهب اللهم لا ترجعه .

وأقبل الشيخ إبراهيم وحده ، وهم بأن يتكلم ولكن سعدية قالت :
— أين حامد ؟ .

فقال خديجة :

— صعد إلى سطح الدار .

فانطلقت سعدية إلى السلم الخشبي وصعدت فيه ، وتركت الأب والابنة يتعاتبان ويتناجيان .

رأت حامد جالسا في الظلام وقد شرد ببصره إلى الفضاء حتى غاب عن كل ما حوله ، ودنت منه وراحت ترقبه ، فإذا به غارق في وجومه ، فهمست في صوت متهدج :

— حامد ، ماذا بك .

وأفاق من شروده وقال :

— لا شيء .

— ماذا تخفى عني ؟ .

ولم يقو على أن يكتم سره فقال :

— إنى ذاهب غدا يا سعدية .

فقالت له وقد راح قلبها يدوى دوى الفزع :

— إلى أين ؟

— إلى الجهادية .

فاغرورت عيناها بالدموع وقالت :

— أيعرف جدى ؟ .

— لم أقل لأحد .

فقالت وهى تحس وقدة نار فى حلقها :

— لماذا ؟ .

فأطرق برأسه ولم ينبس بكلمة ، وفاضت شجون سعدية فاندفعت تضمه

إلى صدرها وتغمغم :

— حامد .. حامد .

ثم أجهشت بالبكاء .

وباتت الأسرة في وجوم ، ولم تغمض للشيخ إبراهيم عين ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء شيخ البلد وبعض رجال الحكومة وأخذوا حامدا وربطوه مع أقرانه من شباب القرية ، وانطلق مع القطيع يتلفت ، فإذا بسعدية تهزول خلفه وتصحح مولولة :

— حامد .. حامد ..

ووقف الشيخ يرنو إليه من خلل عيراته ، يحس يدا قوية تهتصر قلبه وخنجرًا يخز روحه ، فقد تجددت شجونه ، والتفت إلى خديجة وقال في أسى عميق :

— إنه ذهب يا خديجة كما ذهب أبوه ولن يعود .

وجرت دموعه تغسل لحيته البيضاء .

أطرق إسماعيل يفكر مهموما ، أغرق البلاد في الدين ، وراح يعلن للدول ذات النفوذ عن عجز المالية المصرية عن الوفاء بالدين ، ظنا منه بأنه متى ثبت عجزها عن أداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفى له أعلنت الدول قطع مرتب الآستانة ، ونادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا إلى سلطان آخر ، فقد كان يسره أن يكون ملكا ولو على بلاد خربة ، ولكن طاش سهمه ، فقد شد وثاق نفسه بهذه الديون يوم شد وثاق البلاد بها .

أراد أن يتخلص من رقابة الأجانب ، ومن السير رفرز ولسن بالذات ، قدبر مؤمراته ضد نوبار فاستقال نوبار ، وبقي السير رفرز ولسن في وزارة المالية يجرحه المرارة ويسومه الهوان ، فراح يدبر الأمر ليتخلص من ذلك الكابوس الجاثم على صدره ، يسلبه السلطة والسلطان .

وفكر في العرائض التي يرسلها إليه أعيان المصريين يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية ، وأن تكون للأمة رقابة عليها ، فلماذا لا يستغل هذه الحركة ويضرب بالأمة أعداءه وأعداء البلاد ؟ فيا طالما استغل علماء الأزهر في تحقيق أهدافه ومآربه .

كان يغرى علماء الأزهر بالرشا والهدايا فما كانوا يقعدون عن إجابة مطالبه . كانوا يوقعون على عرائضه التي يطلب فيها رفع فوائد الدين أو خفضها ، وما ثاروا في وجهه لأنه تعامل بالربا الذي حرمه الله ، ولكنهم

ثاروا مرة واحدة يوم دعاهم إلى ما فيه مصلحتهم ، يوم طلب منهم تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر ، سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الأوربية . فقد احتجوا بأن ذلك يخالف طريقة سلفهم الأزهرى فى كيفية التأليف ، فالواجب أن يكون الكتاب مؤلفا من متن وشروح وحاشية ، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف إليه التقارير ، فهذه هى سنة المشايخ المألوفة . أما تأليف كتاب سهل على كيفية كتب القوانين ، فمن البدع الهدامة لتلك السنة التى جرى عليها السلف الصالح . فما أيسر أن يقروض المشايخ الجامدون ركنا من أركان الدين ، وما أصعب أن يخذشوا طريقة من سبقهم فى التأليف من السلف الأزهرى العظيم ! .

واستراح اسماعيل إلى فكرة الاستعانة بشعبه فى التخلص من الوزارة الأوربية ، فراح يشجع الوطنيين فى مطالبهم ، فاجتمع أعيان البلاد فى بيت البكرى ، وكتبوا مذكرة وقعها منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الإسلام وبطريك الأقباط وحاخام اليهود ، وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الأعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش ، طلبوا فيها عزل السير رفرز ولسن وتأليف وزارة وطنية ، وإيجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة ، وتكون الوزارة مسئولة أمامه .

ووجد اسماعيل الفرصة مهيأة ليضرب السير رفرز ولسن الضربة القاضية ، فاستدعى قناصل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق فى وسعه أمام هياج الرأى العام فى مصر إلا أن يحكم بوزارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب ، وأن ابنه توفيق باشا استقال من رئاسة الوزارة وأن شريف باشا عين خلفا له ، وقدم للقناصل فى الوقت نفسه مشروعا ماليا جديدا بدفع

الديون في خمسة وستين عاما ، وتخفيض الفائدة ، وأعلن أن المراقبة الشائبة التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الأوروبية تعود إلى ما كانت عليه .

علم السير رفرز ولسن بذلك فثار ، واحتج على إسماعيل واتهمه بأنه هو الذى دبر هذه الحركة ليتخلص من تعهداته ، ولكن إسماعيل لم يلتفت إلى احتجاجاته ، بل دبر مؤامرة ليجبر عليه ، فبينما كان السير رفرز ولسن وزوجته يسيران فى الإسكندرية إذ هجم عليهما الجمهور وأهان السير إهانة بالغة ، فرفع شكواه لوزارة الخارجية البريطانية فضنت عليه بالتأييد ونصحت له بالاستقالة ، فاستقال وسافر إلى أوروبا حاقدا ، لينضم إلى نوبار يكد لإسماعيل فى الظلام لعله ينتقم لما ناله .

وتنفس إسماعيل الصعداء يوم تخلص من غريمه ، فلم يشعر فى غمرة سروره أنه أحدث فى الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، فقد أيقنوا أن الحاكم القوى السلطان قد صار فى حاجة إليهم ، ولا قوام لأمره إلا بالاعتماد عليهم ، فزادهم ذلك ولوعا بما كانوا يميلون إليه من وجوب اشتراكهم فى أعمال الحكومة ، تفتحت عيونهم على حقيقة ما كان يدعوهم إليه السيد جمال الدين الأفغانى ، إنهم يستطيعون أن يدلوا برأيهم فى إدارة شئون بلادهم إذا نقضوا عنهم غبار الذل والخنوع .

ولم تدم راحة إسماعيل طويلا ، فقد راحت الحوادث تعدو سراعا .
خفض إسماعيل فوائد الدين ففزع السير رفرز ولسن إلى بيت روتشلد يجرئه على الاحتجاج على مصر فهو ربيب ذلك البيت ، وراح يؤلب إنجلترا وفرنسا عليها لعله ينتقم من إسماعيل الذى ألقى به خارج الوزارة ، ونجح فى تأليبهما ، ولكنهما لم تحتجا على الخديو لأنهما كانتا تخشيان معارضة ألمانيا ،

فهرع السير رفرز ولسن إلى بسمرك وظل يحاوره حتى حصل على موافقته ،
فأرسلت إنجلترا وفرنسا احتجاجا قالتا فيه إنهما لا تعترفان لأمر إسماعيل بأية
قيمة قانونية .

وأسقط في يد إسماعيل ، لمح العاصفة تتجمع فأخذ الرعب وحاول أن
يتقيها فأوحى إلى شريف باشا رئيس وزرائه أن يبلغ الدول أن أمر تخفيض
الديون قد ألغى ، فأعرضت الدول عنه ، فقد بيتت إنجلترا وفرنسا أمرا .
بعثت الحكومة الفرنسية إلى قنصلها العام في القاهرة برقية قالت فيها « إننا
متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن نصح للخديو بأن ينزل عن
العرش وأن يغادر مصر ، فإن أطاع هذا النصح فسنعمل معا لترتيب معاش
له ، ولبقاء العرش لابنه توفيق » .

رأى جمال الدين الأفغانى الفرصة سانحة ليخلص البلاد من إسماعيل
وشروره ، فذهب وبعض أصدقائه من أعيان المصريين إلى شريف باشا وطلبوا
منه أن يقنع الخديو بوجوب التنازل عن الخديوية ، وقالوا له إن رفض طلب
الدولتين لا يفيد ، وأنهما لا بد أن تنالا ما تطلبان عاجلا أو آجلا ، والفكر في
الحرب رأى طائش ، فإن الناس عموما في انحراف عنه ، فإذا وقعت الواقعة
ودارت رحى المعركة خذله الجيش في أول واقعة .

وذهب وفد المصريين مع السيد جمال الدين الأفغانى إلى وكيل دولة
فرنسا ، وقالوا له :

— إن في مصر حزبا وطنيا يطلب الإصلاح ويسعى إليه ، وأن الإصلاح
في مصر لا يتم إلا على يد ولي العهد توفيق باشا .

وكشف السيد جمال الدين الأفغانى الغطاء ، وراح يعلن للناس جهرا رأيه

فى إسماعيل ، وبنه الأفكار وبيّن للمصريين أن سلطة سلطانهم ليست إلهية
تعلو فوق البشر ، وراحت الصحف التى كان يغذيها السيد تتكلم صراحة عن
الحزب الحر .

أقلقت تهديدات إنجلترا وفرنسا الخديو ، فأطرق يفكر فيما يفعله ليتخلص
مما هو فيه وينجو بعرشه ، ولكن الدولتين كانتا قد دبرتا كل شئ ، فأرسلت
فرنسا برقية قالت فيها : « إذا رفض الخديو أن يصغى لنصحنا فلن نتردد فى
الالتجاء إلى الدولة صاحبة السيادة على مصر ، لنطلب من السلطان عزل هذا
الأمير الذى أنكر واجباته إنكارا خطيرا وتعيين خلف له » .

علم السلطان عبد الحميد أن إنجلترا وفرنسا لاجتئتا إليه لتطلبا منه عزل
إسماعيل ، وأنه لن يرفض طلبهما ، وأنه من الأكرم له أن يسبقهما إلى خلعه
ليوهم نفسه أنه صاحب الكلمة العليا ، فأرسل إلى إسماعيل قبل أن تطلب
الدولتان منه شيئا برقية بعزله ، وبعث ببرقية أخرى إلى توفيق بتوليته مكان
أبيه ، وشمخ الباب العالى بأنفه فقد ظهر بمظهر صاحب السلطة ! .

وعم البلاد سرور عظيم ، وراح الحزب الوطنى يهنئ بعضه بعضا ،
تخلصت البلاد من الطاغية دون إراقة دماء ، وجاء توفيق الذى يأملون الخير
على يديه ، وانهاالت على الخديو الجديد الذى تعلقت به الآمال برقيات
النهائى ، وجاءت برقية من « بيت روتشيلد » مفعمة بأطيب التمنيات !

كانت السيدة عائشة (الكوديا) متهللة الوجه ، منشرحة الصدر ، تستشعر غبطة تملأ نفسها ، فكانت تغدو وتروح خفيفة نشيطة ، وتتمتع بعض الألفاظ الغامضة في حرارة ، فقد كانت ترقى الخديو توفيق في قصر عابدين وتبخر ثيابه يوم خروجه إلى قصر الجوهرة ، لينادى به خديويا على مصر ..

ورنت إلى توفيق رنوة كلها حب ، وقالت في صدق :

— هذه أسعد لحظة في حياتي ، تحققت فيها كل آمالي .

فقال توفيق في اهتمام :

— ماذا يقول الناس عنى ؟ .

فقالت السيدة عائشة في حرارة :

— الناس مستبشرون بكم ، لا يذكرونكم إلا بكل خير ، عقدوا عليكم

كل آمالهم .

وارتدى توفيق ثياب التشريفة ، وهبط من القصر يتألق قد ازدان صدره بالنياشين ، وركب عربته فأطلقت المدافع ، وارتفعت أصوات الشعب تهتف بحياته ، فقد كان الناس يحسبون أنهم مقبلون على عصر حرية تتحقق فيه رغباتهم .

انطلقت كوكبة من الفرسان خلفها عربة الخديو ، وقد جلس توفيق يرد على شعبه الذى هزه الفرع تحيته ، وجلس إلى يساره شقيقه الأمير حسين باشا .

كامل ، وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا ، وبجانبه رئيس النظار محمد شريف باشا ، وقد اصطف الجند على جانبي الطريق الذى راحت الأعلام التركية تتحقق فيه ، فما كان للمصريين علم إلا العلم الأحمر يتوسطه الهلال الأبيض والنجمة .

وبلغ الموكب القلعة بين هتافات الشعب المدوية ، فدلف توفيق إلى القاعة الكبرى فى قصر الجوهرة ، وجلس على يساره شقيقاه والنظار ، وأقبل نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية وقاضى القضاة وشيخ الجامع الأزهر يزجون إليه التهئة ، ويبدون البشر ويظهرون الفرح والغبطة . كانوا على استعداد ليمشوا بالتهئة لأى رجل يتربع فى دست الحكم ، فما يهمهم من الأمر إلا أن يكونوا موضع الرضا .

ودخل عليه قناصل الدول ، وتقدم منه أكبرهم سنا وراح يهتته ، فرد عليه شاكرًا ، ثم غصت القاعة الكبرى بالأعيان والتجار وكبار الموظفين وأفعمت بآيات النفاق والملق والرياء ، وانتهت المراسيم فعاد الخديو الجديد إلى قصر عابدين ، بين قصف المدافع والهتافات المنطلقة من الحناجر لتبلغ عنان السماء .

وما كادت القاهرة تستريح حتى تأهبت لموكب آخر ، فقد اصطف الجند على جانبي الطريق من قصر عابدين إلى محطة مصر ، وأسرع الناس فرحين ليروا الخديو المخلوع الذى جرعه كؤوس الهوان ، وهو فى طريقه ليغادر البلاد .

وانسابت العربدة وقد جلس فيها إسماعيل وفى وجهه ذل وأسى ، وإلى يساره توفيق ، وانطلق الموكب يحف به الفرسان والناس ينظرون مذهولين كأنما

لا يصدقون أن ذلك الكابوس الذى كان يحجم على صدورهم كالجبال قد انزاح عنهم إلى غير رجعة .

ودخل إسماعيل المحطة ، وتوفيق يسير إلى جواره فى وجهه حزن عميق ، وحانت ساعة الوداع فقامت عينا توفيق بالدموع ، وتعانق الأب والابن ، ثم قال إسماعيل :

— لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر آل برا ، واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شورك ، وكن أسعد حالا من أهلك .

ووصل القطار إلى الإسكندرية ، فانطلق إسماعيل وآل بيته إلى الميناء وراح يدير عينيه فى المكان ويغالب دموعه ، ولكن حزنه غلبه فأجهش بالبكاء ، فبكى الواقفون ، واشتد النحيب ساعة الوداع ، وتقدم إسماعيل مطرق الرأس إلى « المحروسة » ، وبدأت تبعد عن الشاطئ شيئاً فشيئاً لتفصل بين حاضره الخديو المعزول وماضيه ، وألقى على البلد الذى رماه بتهوره بين برائن الأجانب الطامعين نظرة وداع ، وأخذ الفاصل بينه وبينه يتسع ويتسع ، يحس غصة فى حلقه ، ووقدة نار تستشرى فى صدره وأرهفت حواسه كلها ، إلا ضميره فظل غارقاً فى سباته لم يهب ليخزه على أنه لم يكتف بما جره على البلاد من مآسى وآلام ، بل حمل معه ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، جمعها من عرق الفلاحين بعد أن ألهب ظهورهم بالسياط .

وانطلقت « المحروسة » إلى نابولى تحمل طاغية ذل ، وملكا أسس ملكه على (قلعة الأبطال)

الظلم والجور ، فتداعى البتيان ، وابتلع الأفق فى جوفه المحروسة واختفى
إسماعيل عن العيون ، ولكن ظلت آثاره الدامية فى جسم الأمة ليس لها براء .

١٧

جلسوا يتسامرون فى ضوء المصباح الخافت ، الشيخ إبراهيم مطرقا يصغى
دون أن تتحرك شفتاه بكلمة ، وعمار يتدفق فى الحديث بحس زهوا ، وخديجة
ترنو إلى عمار فى وله تكاد تلتهمه بعينها ، وسعدية تتململ فى ضيق وترغم
نفسها على البقاء حتى لاتغضب خالتها المفتونة بزوجها الجديد .

طلقت خديجة من علوان بعد أن أبرأت ذمته مما لها قبله ، فانطلقت إلى
الأسواق تنقب عن زوج جديد ، ولحت عمارا وهو عائد إلى القرية بعد أن
سرح من الجيش ، فألفته شابا مقتول الساعدين بارز الصدر تتم ملاح وجهه
على القوة والفتوة ، فاشتت أن تعيش فى ظله ، فليلة معه خير من عمر طويل
فارغ .

ودنت منه وحادثته وسألته عن حاله ، ففهمت منه أنه يبحث عن عمل
فانشرح صدرها ورقص قلبها طربا ، وأسرعت تعرض عليه أن يعمل عندهم ،
فقد ذهب حامدا إلى الجيش وأصبحوا فى حاجة إلى من يقوم بعمله ولم يفزعها
أجره ، فإذا تعذر على أبيها الشيخ أن يدفع له ما يتقاضاه أمثاله فهى على
استعداد أن تدفع له من عندها وترضيه .

وعمل عمار فى حقل الشيخ إبراهيم ، فراحت خديجة تحيطه برعايتها تحمل

إليه ما تتفنن في صنعه من المأكولات ، وتقوم عنه ببعض عمله ، فأفعم بالرضا ، وما أن لوحث له خديجة بالزواج حتى استولت عليه الفكرة ، فسيعيش بعد قسوة الجندية وعجرفة الضباط الجراكسة سيدا مدللا منعما . وفي ذات مساء طرق دار الشيخ ودخل يطلب خديجة ، وما خرج من عنده إلا بعد قراءة الفاتحة ، وافقت خديجة على أن تعيش في ظله وأقنعت أباه بالموافقة ، وغمرها السرور فأقبلت على سعدية تبثها أمانها وآمالها .

وتم الزواج ولم تنتقل خديجة إلى بيت عمار فما كان له بيت ، بل انتقل عمار إلى بيت الشيخ ، وتنافس الجميع في إرضائه إكراما لخديجة ، فعاش في الدار ملكا يستهلك ولا ينتج ، وينهى ويأمر ، له كل الحقوق وليس عليه واجبات يؤديها إلا واجباته قبل المرأة التي تشبث بأذيال الشباب وقد فر منها . صمت عمار قليلا وشرد بصره ، ثم ضحك ضحكة هستيرية ، فقالت له خديجة في اهتمام :

— ما الذى أضحكك ؟ .

— تذكرت كيف نجوت وحدى من الموت وقد أيدت الفرقة كلها .

— كيف ؟ .

واعتمد عمار في جلسته ، وأصلح جلبابه الأزرق وتأهب ليقص قصته ، كان يستشعر لذة كلما قص نبأ مغامراته في الجندية ، وقال :

— سافرنا لحرب الحبشة ، وقد خرجت في الفرقة الأولى التي كان يقودها اللواء عثمان رفقى باشا ، إنه رجل جركسى أحمر الوجه متفوخ كالديك الرومى ، لا يتكلم إلا شعطا ونظرا ، فكنا إذا عسكرنا في الليل لا نجد موضوعا نتحدث عنه إلا عثمان باشا فكنا نقلده ونتندر بحوادثه ، وأخذنا نجتاز

مجارى السيل وتنسلق الجبال حتى بلغنا حصنا عسكريا فيه . مكثنا أربعين يوما لا نعمل شيئا ولا نتدرب على شيء ، وظل الجنرال لورنج فى خيمته وكان رئيس أركان حرب القوات المصرية ، إنه أمريكى كل مؤهلاته أنه كان رئيسا لفرقة من فرق المتطوعين فى الحرب الأمريكية .

إذا أردت أن تكون شيئا مذكورا فى الجيش المصرى فلا تتركب أكبر حماقة وتولد من أبوين مصريين ، بل عليك أن تختار أباك من الأمريكان أو الفرنسيين أو من السادة الأتراك ، إنها وصمة عار أن تكون مصريا فى جيش مصر . كان يتردد على الجنرال لورنج كل يوم أحد القسوس الفرنسيين . فكانا يقضيان الوقت فى مسامرة ، حتى إذا وفد الليل انصرف القسيس من حيث أتى وأوقدنا النار نصطلى لهيها من شدة البرد .

وفى ذات صباح أمرنا الجنرال لورنج بالخروج للقتال ، فخرجنا وجعلنا الجبل وراءنا ، وكان أمامنا خور عميق لا ماء فيه ، فكان حاجزا بيننا وبين الأحباش ، وأطلقت مدافع الأحباش فخلع أركان الحرب الأوروبيون والأمريكيون طرايبشهم ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا فى أعناقهم مناديل بيضاء ، وبدأنا فى إطلاق المدافع فإذا بأشجار تتقدم نحونا ، وإذا بنار حامية تطلق علينا من كل جانب ، وظهر بيننا الأحباش بسيوفهم ، فدارت معركة رهيبة بالسلاح الأبيض .

وتصعب العرق منى ، فربطت حول عنقى منديلا أبيض ، وألفيت قبعة ملقاة على الأرض فوضعتها على رأسى .

وسقط رجال المدفعية المصرية صرعى السيوف الحبشية ، وانهزمتنا وسلمنا ظهورنا للعدو ، وراحت حراب الأحباش تعمل فىنا ، ومن العجب أنه لم ينبج

إلا من كان على رأسه قبة أو فى عنقه منديل أبيض !.

فقال الشيخ إبراهيم وهو يهز رأسه أسفا :

— هذا ليس بعجيب ، هذا هو الأمر الطبيعى .

فقال له عمار فى دهش :

— كيف ؟.

فقال الشيخ إبراهيم فى مرارة .

— خان الجنرال لورنج الجيش المصرى ، وكان القسيس سفيرا بينه وبين

التجاشى فلما تم نسج المؤامرة اتفقا على أن يرتدى الأوربيون والأمريكيون

قبعاتهم ويربطوا منديلا أبيض فى أعناقهم ليميزوا عن المصريين ، فيامنوا على

أنفسهم عند اختلاط الجيشين .

فقال عمار فى صوت خافت :

— نجوت مصادفة ! .

فقالت خديجة حاملة :

— أبقاك الله لى .

فإذا بصوت يرن فى جوف سعدية وإن لم تتحرك شفتها ، يقول :

— عمر الشقى بقى .

ولم تطق صبرا فقامت وصعدت فى السلم الخشبى إلى سطح الدار ،

وتمددت وقد شردت ببصرها تنظر إلى القمر ، ومررت يدها على عنقها

فلمست العقد المتدلى على نحرها ، فإذا بصورة يوسف تحتل ذهنها ، رأتة وهو

يقدم إليها العقد وقد تألقت عيناه ببريق أحست به يضىء ظلمات نفسها ،

وانزاحت صورة يوسف ، وإذا بها ترى طيف حامد إلى جوارها يرنو إلى

القمر ويقول :

— ما ألد أن يكون المرء محبوبا ، إننى أشتى أن أذهب مع من تحبني إلى أى مكان ولو إلى فاع البحر .

وأحست حنانا يتدفق فى صدرها ، ومشاعر لذيذة تمور فى جوفها ،
فغمغمت فى صوت رقيق مس أذنيها عذبا ، زاد وجدها وأيقظ لطفها :
— ليتنى ذهبت معك !.

خف السيد جمال الدين الأفغانى إلى الخديو توفيق يسأله أن ينجز وعده ، وأن يشرك شعبه فى حكم البلاد ، فأظهر توفيق صادقا ميله إلى منح شعبه الدستور الذى يبتغيه ، فقد كان مسحورا بحديث السيد الجذاب ، فمال إلى مشايعة الإحساس العام ، وأصدر أمره فى ثورة تحمسه إلى وزيره شريف باشا ، جاء فيها : « إن العناية الإلهية سلمت زمام الحكومة إلى يدنا فضلا منه وإحسانا ، ولعلمى أن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية ، ونظارها مسئولين ، فأنى اتخذت من هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا تحول عنه ، فعلىنا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها ، ولكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين ، وتصحيح الموازين » .

وذاع الأمر الكريم فغمرت الناس موجة من السرور وانتعشت الآمال ، فقد كان هذا الأمر فاتحة خير فى العهد الجديد ، وما جاء الليل وذهب السيد جمال الدين إلى قهوة « البوسطة » يتوكأ على عصاه كعادته ، حتى هرع إليه أصدقاؤه ومريدوه يهشونه ويشلون على يده ، فقد بدأت تعاليمه التى كان يثبثها فى الصحف تزدهر ويدنو قطافها .

وجلس السيد يتحدث أصدقاءه فأحس الناس قلوبهم تتفتح للخديو الجديد وخاضوا فى أحاديث الإصلاح مستبشرين ، ولو دروا بما يجرى فى قصر الخديو لانقبضت صدورهم ولانقلبت أفراحهم أتراحا ، فقد كان قنصلا فرنسا

وإنجلترا يوسوسان لتوفيق ويحرضانه على أن ينكث عهده ، وما كان الخديو صاحب شخصية قوية تستطيع أن تقف في وجه الزوايع والأعاصير ، ولكنه كان صاحب شخصية تخضع دائما لأية شخصية أقوى منها وتنقاد لها ولو إلى الهاوية ، فجعل يصغى إلى مستر فيفيان وزميله وقد لاح في وجهه أثر حديثهما الحبيب الذى كان يقطر سما .

كانا يتمتعان بالسلطة المطلقة في الدولة ، فلما علما بأمر توفيق الذى يتعهد فيه للأمة بمنحها دستورها أحسا الخطر الذى يهددهما ، سينازعهما مجلس النواب سلطتهما ، فهرعا إلى توفيق يثنيانه عن عزمه ويلوحان له بالخطر الذى يهدد عرشه إذا سار في هذا الطريق الخطير ! .

قال له مستر فيفيان :

— سيعوق مجلس النواب حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وإفناء الوقت في المداولات ، إن هذا النظام لا يصلح في أمة تقاسى من الارتباك المالية . فقال توفيق في صوت خافت :

— ولكن السيد جمال الدين الأفغانى قال لى : لن يكون إصلاح ما لم يشترك الشعب في الحكم .

فقال مستر فيفيان في خبث :

— إن جمال الدين رجل ثائر ، فما ذهب إلى مكان إلا أشعل فيه نار الثورة ، إنه يعمل على إبدال الحكومة بجمهورية شورية لأن نفسه تحدته بتولى زعامتها . وأحس توفيق قلقا يثبت في جوفه ، ونار الحقد تستشرى في صدره ، وراح القنصلان ينفخان في جهرة غضبه ويغيرانه على أصدقائه ، وما غادراه حتى كان قد وطن النفس على رفض مشروع الإصلاح لينجو بعرشه من المؤامرات

التي تحاك له !

وأقبل شريف باشا يعرض على الخديو ما وضعه الوزراء فى مشروعاتهم عرضا غير رسمى ، فإذا بتوفيق يبدى النفور من المشروع ، وإذا به يميل إلى غير ما أظهر لشعبه ، فخرج شريف باشا من عنده مدهوشا لا يدرى سبب ذلك التبدل الطارىء .

وما انقضى يومان على صدور ذلك الأمر الذى قال فيه توفيق إنه اتخذ نظاما لحكومته لا يتحول عنه ، حتى دعا حضرات النظار ، فلما وافوه فى الليل ودار الحديث حول مشروع الإصلاح قال شريف باشا :

— إننا نرى يا مولانا تنفيذ لائحة الإصلاح بعد أن وعدتم الشعب بمنحه حق محاسبة الوزراء .

— إن هذا الإصلاح سابق وقته .

ولم يتزحزح توفيق عن موقفه ، فقدم الوزراء استعفائهم من الوزارة فقبلها الخديو ، وبذلت الجهود لإخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة إلى الإصلاح ، فتؤلب الناس على الخديو الذى نكث بعهده ولم يكذب ينف المداد الذى سطره به .

تخلص الخديو من شريف ووأد فكرة منح الشعب حق محاسبة وزرائه ، ولكن لم تهدأ مخاوفه ، وكيف تهدأ وصاحب فكرة الحكومة الشورية يصول ويجول ويكتب المقالات فى الصحف التى أنشأها ، يذر فى الرعوس أفكار الثورة ، ويحض الجماهير على تحطيم القيود التماسا للحرية . انه لن يستريح حتى يتخلص من جمال الدين ويخلو له وجه البلاد .

تسربت الأنباء تخوض فى حقيقة أسباب استعفاء الوزارة ، وراح الناس

يتهايمسون ويقولون إن توفيق رفض مشروع الإصلاح الذى تقدم به شريف ،
وضاعت الجهود التى بذلت لإخفاء حقيقة سبب الاستعفاء سدى ، فما
أصعب أن نحجب عن الناس الحقيقة ! .

خرج السيد جمال الدين من داره ، فإذا بالصبيان يطوفون بالطرقات وفى
أيديهم المصاييح الملونة ينشدون أناشيد رمضان ، فرنا إليهم وابتسم ، ثم انطلق
يتوكأ على عصاه ميمما شطرقهوة « البوسطة » ليجتمع بأصدقائه ومريديه .
سار فى حى الأزبكية فإذا به غارق فى النور ، والناس يموجون فيه
ويتلاطمون ، كانوا يحتفلون برمضان فى دور اللهوفيسهرون فى مرح وسرور .
حتى السحور ، فألقى على الجموع نظرة عابرة ، ثم انساب حتى إذا بلغ
منعطفًا عرج عليه وسار فيه خطوات بالقرب من مبنى دار البريد ، فرأى
الشيخ محمد عبده وأصدقائه فى قهوة « البوسطة » يرصدون قدومه فأسرع
الخطا ، ولما بلغهم أقبل عليهم يحيمهم فى بشاشة ، ثم جلس يتحدثهم وقد تعلقت
به العيون ، وقال :

— علمت أن قنصل فرنسا وقنصل إنجلترا قابلا الخديو قبل أن يرفض
مشروع الإصلاح ، وأنه ما رفض المشروع إلا استجابة لنصحهما .
فقال قائل :

— إني أعجب كيف يتخذ من أعدائه مستشاريه ؟ !
وارتفع صوت يقول :

— قلت لكم إن توفيقا ضعيف لن يعصى للقناصل أمرا .
فقال جمال الدين :

— يحز فى نفسى أن يصغى إلى الإنجليز .

ودار الحديث حول توفيق ونكوصه على عقبيه بعد أن أقدم ، وإذعانه للأجانب وإن كان في هذا الإذعان إغضاب للوطنيين ، وامتدت السهرة حتى إذا ما اقترب ميعاد السحور انفرط عقد الاجتماع ، فذهب كل في طريق .
انصرف جمال الدين وخادمه المخلص الوفي أبو تراب ، ذلك الرجل الأمي الذي أصبح فيلسوفا من مخالطة الحكيم العظيم ، وما ابتعد عن الأصدقاء قليلا حتى انقض عليهما رجال الشرطة واقتادوهما إلى الضبطية وهما في عجب لا يدريان لذلك الغدر سببا .

أطرق جمال الدين يفكر فارتسمت على شفثيه بسمة استخفاف ، كان يقول إنه لن يكون إصلاح إلا على يد الأمير توفيق ، وها هو ذا يتربع في دست الحكم ويأمر بإلقاء القبض عليه ، هو الذي هيا الأذهان لاستقبال توفيق بالهتاف والترحيب .

إنها ذرية بعضها من بعض ، فما توفيق إلا ابن إسماعيل ، فإذا كان إسماعيل طاغية ظالما ، فتوفيق خائر القوى يخضع لأية إرادة أقوى من إرادته ، ثم يسعى بعد ذلك في الظلام يحاول أن ينفذ ما يدور في نفسه من أفكار .

ودخل رجال الشرطة عليه فلم يحفل بهم ، وأخذوا يفتشونه فلم يجدوا معه إلا ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة فأخذوها ، وتركوه وحده ولكنه لم يشعر بوحشة ، فقد كان يمضى الوقت مع عقله الكبير ! .

وتنفس الصبح ، فحمل في عربة مقفلة انطلقت به مسرعة إلى محطة السكة الحديدية ، ونقل منها يحف به حراس شداد إلى القطار ، وانطلق القطار يحمله إلى السويس ، فانقضت الحقيقة البغيضة لعينيه ، كان في طريقه ليغادر البلاد .
يا طالما غادر جمال الدين بلادا ليحل في بلاد أخرى يتخذ من أهلها أهلا

وأصدقاء ، فالعالم الإسلامى كله وطنه والمسلمون إخوانه ، ترك الأفغان وغادر الحجاز وخرج من تركيا ، ولكنه لم يحس من قبل الماراة التى يحسها اليوم ، إنه أحب مصر وأحب أهلها وبذل ما وسعه البذل ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فإذا بأعدائه الإنجليز يوغرون صدر توفيق عليه ويزينون له طرده من البلاد .

ووصل إلى السويس وقد بلغ مسامع قنصل إيران بها نبأ نفيه ، فهرع إليه يودعه ، فألفاه وحده ليس معه متاع ، فعرض عليه مبلغا وافرا من المال يستعين به فى منفاه ، فشكر له جمال الدين ذلك وأبى أن يأخذ شيئا وقال :
— إن الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته .

وهبط جمال الدين إلى الباخرة باسر الوجه منقبض الصدر ، وألقى نظرة وداع على البلاد التى جاءها وأهلها يرون أن شئونهم ملك لحاكمهم الأعلى ، وأن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانتة وظلمه ، فإذا به يغادرها وقد علم أهلها أن الحاكم وإن وجبت طاعته ، فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا يقظة الشعب وتمسكه بحقه .

وانطلقت الباخرة تحمل جمال الدين ، ذلك الذى كان توفيق يقول له متملقا : لأنك أنت موضع أمل فى مصر أيها السيد ، وابتعدت الباخرة ، وغابت مصر عن عيني جمال الدين فقد أسدل الليل ستاره السود فحجبت عنه كل شيء ، ولكن ظلت مصر ماثلة فى ذهنه لم ينسها طرفة عين ، فقد خلف فيها أصدقاءه وأحبابه وأفكاره .

وتخايل لعيني جمال الدين طيف الشيخ محمد عبده فومض فى ذلك الظلام



فالعالم الإسلامي كله وطنه ، والمسلمون إخوانه .

الدامس ومضة الأمل ، فإذا كان قد غادر مصر فقد ترك فيها تلميذه ينفث بين الناس آرائه ، ويزيل عن عيونهم تلك الغشاوة التي حالت بينهم وبين الحقيقة الساطعة آمادا .

وضع جمال الدين كل آماله في الشيخ محمد عبده ، ولكن توفيقا لم يدع الشيخ طليقا ، بل أمر بعزله من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن وبأن يقيم في قريته « محلة نصر » لا يغادرها .

واستيقظ الناس فلم يجدوا السيد ولا الشيخ ، فمارت الثورة في صدورهم ، وراحوا يتهايمسون أن عصر توفيق لن يختلف عن عصر سلفه فما زال الظلم يرتع في البلاد ، فأين الأمن إذا لم تحقق التهم ولم يسأل المتهم ؟ فلا كان إصلاح إذا لم يتقرر الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق ا .

ودعا الخديو توفيق جماعة من إمعات مشايخ الأزهر إلى مائدة الإفطار في رمضان ، وراح يتحدث مسرورا يقص خبر نفيه لجمال الدين وأمره بعزل الشيخ محمد عبده وإقامته في قريته لا يبرحها ، فأظهر المشايخ رضاهم على ما فعله الخديو وقالوا له متملقين :

— نعم ما فعلت يا مولانا ، لقد خلصت البلاد من هذين الزنديقين المارقين من الدين .

وراحوا يخوضون في الرجلين الكريمين ويرمونهما بكل نقيصة ، إرضاء للخديو الذي كان يملأ كروشههم ، فما كان همهم في الدنيا إلا ملء الكروش ا .

إرتفع صوت المؤذن يؤذن بالمغرب ، فهرع عمار إلى القلة ورفعها وراح
يصب الماء في فمه صبا ، فمدت خديجة يدها وجذبت منه القلة وهي تقول
مشفقة :

— كفى ، ملأت بطنك ماء .

فقالت سعدية ساخرة :

— لا تخافى ، لن يسد الماء شهيته عن الطعام .

فنظرت خديجة إليها في عتاب ، ولكن سعدية لم تحفل لنظراتها ، فلو
طاوعت نفسها لانفجرت فيه تؤنبه على نومه طوال النهار بحجة الصيام ، فقد
ضاقت سعدية به ، فهي تكد وتعب ويتصبب منها العرق في سبيل ذلك الطعام
الذى يلتهمه في بساطة ، دون أن يذل في سبيله جهدا أو يمد يد العون للذين
يجودون بقطرات من دمائهم كل يوم للحصول على هذا القوت .

انه يمضى سحابة يومه كالسادة الفارغين ممدا في الحجرة ، أو مضطجعا في
ظل شجرة التوت ، ينظر إلى الشيخ وابنته وحفيدته وهم مكبون على عملهم
في الشمس المحرقة التى تشوى الوجوه ، فإذا خطر له أن يعاونه فيما هم فيه
وضع لسانه في سقف حلقه وأصدر من فمه صوتا يحث الثور الذى يدور في
الساقية على أن يسرع في سيره .

عكفوا على الطعام صامتين ، وشاء عمار أن يتحدث فما كان قادرا على أن

يصمت طويلا ، فقال :

— الحمد لله ...

فرفعت سعدية عينها إليه غير مصدقة ، حسبته انتهى من طعامه ولكنه كان يلوك لقمة كبيرة وهو يتحدث ، فغضت من بصرها وراحت تنظر إلى الصحاف التي أوشك ما فيها يغيب في البطون ، وصوته يصك أذنيها دون أن تحفل به :

— الحمد لله ، انتهى رمضان .

فقال الشيخ إبراهيم في هدوء :

— لو كنت تعرف ما في رمضان من بركات ، لتمت أن تكون كل أيامك رمضان .

فقال عمار في بساطة :

— لو كان لي أن أتمنى لتمت أن يختفى رمضان من بين الشهور .

ونفضت سعدية ، وذهبت تعد القهوة لجدتها وصوت يهمس في جوفها :

— لو كان لي أن أتمنى لتمت أن تختفى من الدار .

أصبحت سعدية تحس رغبة في أن تهاجم عمارا وأن تناله بلسانها ، ولكنها كانت تكبح جماح نفسها لإرضاء لخالتها المغرمة بذلك الثور الذي لا خير فيه ، وكانت تعجب لتعلق خديجة به فما كان فيه ما يجب ، وكانت تديم النظر إلى ظله كلما وقف في الشمس فتجده كظل غيره من الناس ، فتساءل في نفسها عما يدعو خالتها إلى أن تدعى أن ظله وارف ممدود يفوق ظل كل من سبقه من الأزواج ، ولكنها ما كانت تهتدى إلى شيء فتزكفها في عدم اكتراث .

وراح الشيخ إبراهيم يحتسى قهوته ، وعمار يثرثر كعادته لا حديث له

إلا ما فعله في الجيش وما سمعه من نوادر وحكايات ، قال :
— راح إسماعيل يستولى على الجمال غصبا ليجهز حملة الحبشة ، فلما
دخل رجاله إحدى القرى خرج منها ثعلب يجرى فرعا ، فقابله الذئب فقال
له : ما الذى جرى يا أبا الحصين ؟ قال الثعلب : إسماعيل يأخذ الجمال
غصبا . فقال له الذئب : ومالك أنت وذلك ؟ فقال الثعلب : أخاف أن
يستولوا على فأظل محبوسا إلى أن يثبت لهم أننى لست جملا .

وراح يقهقه فأشرق وجه خديجة بالابتسام ، وبقي الشيخ إبراهيم صامتا
لا ينبس بكلمة ، وسمع طرق خفيف على الباب فأسرعت سعدية تفتح ،
رأت يوسف أمامها فتدفق الدم إلى وجنتيها وشعرت بارتباك ، ثم قالت في
صوت مضطرب :

— تفضل .

فهمس يوسف في وجد :

— كيف أنت ؟

— بخير .. الحمد لله .

وارتفع صوت الشيخ إبراهيم من الداخل :

— من الذى جاء ؟

فقالت سعدية في صوت عال ، فيه اضطراب وفيه رنة تنم عن الفرح :

— يوسف حضر .

فقال الشيخ في بشر كأنما وجد فيه الخلاص :

— أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ..

وأقبل الشيخ على الشاب مبتهجا ، وجلسا يتسامران ، قال الشيخ :

— كيف حال مضر ؟

فقال يوسف فى حماسة :

— بخير .

وشرد ببصره قليلا ثم قال :

— ليتك تشاهد الأزيكية وهى غاصة بالشباب الذى يرتدى الثياب الأفرنكية ، تنبعث منها الأنوار القوية التى تحيل الليل نهارا . إننا قطعنا شوطا فى طريق التمدن ، لقد أخذنا بمدينة أوربا وإن هى إلا بضع سنين حتى نلحق بالركب .

فقال له الشيخ وهو يهز رأسه :

— إن ما تراه اليوم فى حالة حسنة فينا هو عين التفهقر والانحطاط .

فقال يوسف فى دهش :

— لماذا ؟ .

— إننا مقلدون فى حضارتنا للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطتهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعف واستئناس لحكم الأجنبى .

فقال له يوسف وهو كالماخوذ :

— وما الذى تراه لإصلاح حالنا ؟

فقال الشيخ فى حماسة :

— لابد من حركة دينية ، لابد من أن نعلم الناس أن الله خلقهم أحرارا ، وأن الدين يأمرهم أن يثوروا على المستعبدىن الذين استعبدوهم ، لابد من

بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الناس من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه
سعادتهم دنيا وأخرى .

فقال يوسف كالحالم :

— لكأننى أصغى إلى السيد جمال الدين أو الشيخ محمد عبده .

فقال الشيخ إبراهيم فى صدق :

— لأننى من تلاميذ السيد والشيخ .

فرفت على شفتى يوسف بسمه عذبة ، فقال له الشيخ إبراهيم :

— هذا حق ، فما من كلمة كتبها إلا قرأتها ، أتذكر يوم قلت لى إن الشيخ

محمد عبده يحارب البدع ويحارب الجمود والأخذ برواية السلف فى قبول

العقائد ؟

— أذكر .

— عكفت من يومها على قراءة كل ما يكتبه السيد جمال والشيخ محمد

عبده ، فصادف ما يكتبان هوى فى نفسى فصرت لهما تلميذا آخذ عنهما ،

آه لو قابلتهما يوم جاورت فى الأزهر أو لو وجدت أناسا مثلهما ما غادرتهما

أبدا كانت نفسى متفتحة لطلب العلم الصحيح .

فقال يوسف وهو يقلب عينيه فى وجه الشيخ إبراهيم الذى كانت تحف به

لحيته البيضاء :

— لو بقيت فى الأزهر لكنت اليوم من كبار شيوخه .

ودق الباب دقات متتابعة فهرعت سعدية تفتحه ، ثم سمع صوتها وهى

تقول فى فرح وابتهاج :

— حمدا لله على سلامتك ، أهلا .. أهلا أهلا . جدى .. حامد جاء ..

ودلف حامد وسعدية إلى حيث كان الشيخ إبراهيم ويوسف يتسامران فلما رأى الشيخ حفيده تألق وجهه سرورا وقام إليه يصفاحه ويضمه إلى صدره ، ثم أبعد عنه قليلا ونظر إليه وهو في حلته العسكرية قد وضع طربوشا طويلا على رأسه ودس رجله في حذاء أسود ضخم ، وقال في صوت رقيق :
— ما شاء الله ! أصبح في بيتي جندى باسل ، وإن كنت أمقت القتال وإراقة الدماء.

ومد حامد يده وصافح يوسف في فتور ، ثم التفت إلى سعدية التي كانت تقفز حوله في سرور ورفرت على شفتيه بسمّة وشع من عينيه بريق ، فأحس يوسف انقباضا وغام وجهه بسحابة من الكدر ، وخشى أن يفتنوا إلى ما يعتلج في نفسه من مشاعر ، فالغيرة تنهش صدره ، فقال وهو يمد يده للشيخ :

— السلام عليكم .

— ألا تمكث قليلا ؟

— ذاهب لأنام حتى أستطيع أن أستيقظ مبكرا لأصلي صلاة العيد .

وانصرف يوسف ، وإذا بصوت خديجة يجلجل في عتاب :

— ألا تأتي يا حامد لتسلم على عمّتك ؟

وأحست سعدية كأنما هوت من السماء لترطم بالأرض ، كانت قد نسيت عمارا في غمرة سرورها وإذا بصوت خالتها يذكرها به ، فتطوف بها موجة من امتعاض سرعان ما تنجاب عنها ، فحامد إلى جوارها يملأ نفسها غبطة ورضا وأمنا .

وانطلق حامد إلى عمته وطفق يصفاحها في شوق ، ثم التفت إلى عمار

وصافحه وهو يقول :

— مرحبا بك .

نظر إليه عمار مليا ثم قال :

— إني أذكر أول يوم عدت فيه إلى الدار بعد التحاقى بالجيش ، قابلتني أمي
بالزغاريد ، ثم أخذتني من يدي وأجلستني إلى جوارها وراحت تطعمني
حتى كاد بطني يتفجر ، حسبت أنني لم أتناول طعاما منذ غادرتها .
وضحك عمار وابتسم حامد ، وتأهب عمار ليقص نواتره في الجيش وإذا
بسعدية تجذب حامدا من يده وتقول له :

— تعال اخلع هذه الثياب لتسترخ .

وقادته إلى غرفة جده ، فما عاد له في البيت مكان بعد وفود عمار ، وهمت
بأن تغادره ولكنه قال لها :

— انتظري يا سعدية .

وأخرج من جيب سترته منديل رأس تدلى من أطرافه خرز ملون وقدمه
لها ، فأشرق وجهها وغامت عيناها بدموع الفرح وغمغت :

— كل سنة وأنت طيب .

فقال في وجد :

— وأنت طيبة يا سعدية .

وصمت قليلا ثم قال وهو يغالب خجله :

— والسنة القادمة في بيتي يا سعدية .

وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ، وانسلت من الحجرة يرقص قلبها

طربا ، ولم تعد إلى حيث كان جدها وعمار وخديجة بل ذهبت إلى السلم وراحت ترقى فيه خفيفة طليقة ، وجلست فوق السطح وحدها غارقة في الظلام ، وفي أحلام وردية بهيجة .

٢٠

استمر أقناصل الدول التدخل في سياسة البلاد بعد أن عركوا توفيقا فوجدوه لينا لا يرد لهم طلبا ، أشاروا إليه بضرر إشراك الشعب في الحكم فأطاح بوزارة شريف ، وأوغروا صدره على السيد جمال الدين وأخافوه منه فنفاه من مصر ، فرأوا أن يدخلوا عليه ويقنعوه بأن الوزارة الجديدة التي وضعها تحت رياسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب التي تواجهها ، وأن من مصلحة البلاد أن يعيد الوزراء الأجانب لتستقيم الأمور وتسير على الجادة ! .
اجتمع به قنصل فرنسا وقنصل إنجلترا وقالوا :

— لا بد من وجود مساعدين من الوطنيين والأجانب في الوزارة حتى تقوى على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة ..
فقال الخديو في رقة :

— وبمن تشيران ؟

— نرى إعادة السير رفرز ولسن والمسيو دبلنيار إلى الوزارة ، فقد خبرنا الإدارة المصرية ، وهما قادران على تذليل الصعاب وإعادة الثقة إلى البلاد .
انقبض صدر توفيق ومارت الثورة في جوفه ، ولكنه ما كان بقادر على أن



وجالست فوق السطح وحدها ، غارقة في الظلام ، وفي أحلام وردية بهيجة

يبدى ثورته ، فما كان من طبعه أن يثور فى وجوه الأقوياء فقال :
— هذا ليس فى مصلحتنا ، لأنه يبلبل أفكار المصريين ويؤجج نار الثورة
فى صدور الناس .

ولم يستطع أن ينفذ من ذلك إلى الرفض القاطع ، بل رأى أن يستعمل
سلاح التخويف فقال :

— ومع ذلك فلو صممت الدولتان على إرجاعهما وزيرين فإنى مستعد
للإشتراك معهما فى العمل وقبول ما يشيران به ، وأحسبهما صديقين ، ولكنى
أتبرأ من تبعة ذلك ..

وصمت قليلا وراح ينقل بصره بين الرجلين ، فقال قنصل فرنسا :
— لن تستطيعوا الخروج من الضيق الحائق بالبلاد إلا بمعاونة الخبراء منا ..
فقال توفيق فى استسلام :

— إننى لا أنكر حاجتنا إلى معونة الأجانب ، ولكنى أريد رجالا يشتغلون
بإصلاح المالية ولا يخلطون الإدارة بالسياسة ، ويكونون فى وظائف سامية غير
أنهم لا يكونون وزراء .

— ما رأيكم فى إسناد الوزارة إلى نوبار باشا ؟
فانتفض توفيق وقال فى حدة لأول مرة :
— لا أقبل هذا أبدا .

— ألا تسمحون له بالعودة إلى مصر ؟
— كيف نسمح له بذلك بعد ما كتبت عنه الجرائد تلك المقالات
الضافية ، وذاع أمر دسائسه لمصر بين العامة ؟!
— ما رأيكم فى إسناد الوزارة إلى رياض باشا ؟

— هذا هو الصديق الحميم والصادق الأمين .

وخرج قنصلا فرنسا وإنجلترا ، وأطرق توفيق يفكر فيما جرى بينه وبينهما من حديث فاربد وجهه وضاق صدره ، فقد جاء رياض إلى الوزارة برضا إنجلترا وفرنسا ، فإذا ما شجر بينه وبينه خلاف فلن يكون من السهل الإطاحة به . فبدأت بذور البرم برياض تنبت في نفس الخديو قبل أن يقلع من أوروبا ليعهد إليه برئاسة الوزارة !

راح رياض باشا يعمل لينفذ الإصلاح الذى كان ينشده ، فأصدر أوامره بإلغاء السخرة ، فغضب الأغنياء ووجدوا عليه بعد أن حرّمهم منافع أبدان الفلاحين بغتة ، كان صاحب النفوذ يسخر سكان منطقة نفوذه في أراضيهم فيستخدمهم بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة ، على شرط أن يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة ، فإن كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الادميين ، فجاء رياض ليحرّمهم ذلك فكروهوا حكمه ، وراحوا يدسون له ، ويعملون على أن يتخلصوا منه ليعود إليهم حقهم المسلوب .

وبعث بولينو باشا رجاله المسلحين ليمنعوا فتح الترعة التى يسقى منها الأهالى ليبيع للناس الماء الذى ترفعه آله البخارية ، فأرسل رياض بعض العساكر المصرية لفتح الترعة ، فلما فتحت أوجس بولينو وأمثاله خيفة من رياض ، فانضموا إلى الحانقين .

وأبطل رياض الضرب بالكرياج في تحصيل الأموال ، فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا في إنكار :

— كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاحين بدون ضرب !؟

وامتعض كثير من المديرين وضاقوا بهذا الأمر فقد رأوا فيه تقويضاً لركن عظيم من سلطان الحكومة الذى هو سلطانهم .
وقد شارك بعض الذين ألفوا الظلم من الشعب فى هذا السخط ، فراحوا يقولون منكرين :

— وهل يفيد إلا الكرباج ؟!

واجتهد رياض فى إلغاء أمر الخديو القاضى ببقاء الشيخ محمد عبده فى قرية لا يغادرها ، ولم يكتف برفع ذلك الحظر بل عين الشيخ فى الجريدة الرسمية ، فراح يضع لها لائحة تقضى بأن جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم ، ملزمة بأن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال المهمة التى تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها ، وأن لإدارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الأعمال عندما ترى له وجهاً ، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت إدارة المطبوعات جزءاً منها .

وأشرف الشيخ على مصالح الحكومة يرشدها إلى خطئها ، وأقام من نفسه مراقباً على الحكومة يبين لها مواضع الضعف فيها ويرشد إلى طريق التدارك لما يقع من خلل . وقد ضاق صدر بعض الوزراء والمديرين من شدة انتقاد الشيخ لهم ، حتى أن مدير بنى سويف أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية إلى مديريته ... اشتد خطر الشيخ محمد عبده فأوغر ذلك صدر شائتيه ، فانضموا إلى الساخطين على رياض وحكومته .

وعين عثمان رفقى وزيراً للحرية ، وهو رجل ساذج محدود الإدراك لم يكن يهमे بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضى ميله ويروى ظمأه إلى

السلطة العسكرية في بنى جلدته من الجراكسة ، وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها ، فأغضب ذلك الضباط المصريين فانضموا إلى معسكر الناقمين الثائرين .

ووثق رياض بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين فأساءوا إلى وجهاء البلاد ، ولم يكن يسمع الشكوى لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد ، فوقر في نفوس الأعيان أن رياض باشا عدوهم ، يريد إسقاطهم وإقامة من دونهم مقامهم .

وكانت تجيش في القلوب وتلعب بالنفوس رغبة تأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، راح الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأى وإن خلصت النيات ، فرأى واحد عرضة للخطأ وإن تحققت نزاهته عن الغرض ، ولكن رياضاً لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب الأمر طلباً صحيحاً ، فراح المتاعب تتلبد في سماء حكمه ، وتكتلت القوى المتنافرة ، وتحفزت لتهب في وجهه كالإعصار تقتلعه ووزارته من الحكم ، ثم تتفرق القوى المتكتلة تبحث كل منها عن مصلحتها التي ثارت من أجلها ..

وهنت الشمس فراحت تبعث أشعتها واهية ضعيفة كأنفاس المحتضر ، وهبت نسائم الأصيل رقيقة تعابث المكردودين الذين أمضوا سحابة يومهم في كد ووصب ، ولكنهم لم يحفلوا بعبثها . كانوا يلتقطون أنفاسهم المكدودة في

جهد وقد حنت أجسامهم إلى الراحة ، فجعلوا يعودون إلى دورهم زرافات ووحادانا مغبرى الوجوه مطرقى الرؤوس طروا أفقدتهم على آلامهم ، وإن كانت كل خلجة من خلجات عيونهم وكل لفنة من لفتاتهم تنم عما يقاسون من حيف وحرمان .

وسار الشيخ إبراهيم وخديجة وسعدية صامتين وإن كانت الأفكار تندسس إلى أذهانهم ؛ كان الشيخ يمد بصره أمامه فيرى الحقول المترامية ، والجسر والترعة ، والدواب فى رواحها ، فيقفز إلى رأسه سؤال : ثم ماذا بعد كل هذا الذى رآه آلاف المرات فى الغدو والآصال ؟ وإذا به يجيب نفسه عن ذلك التساؤل : لا شئ بعد هذا إلا أن يزول كل هذا ويمحى من الوجود .. أيزول كل هذا حقا ؟ أبدا .. لا يزول شئ من هذا ولكن أنت الذى تزول .. الأرض تتجدد ، تموت وتحيا ، فلماذا لا أكون كهذه الأرض كلما مت ردت إلى الروح ؟ فإذا به يجيب عن نفسه : حقا أنت كهذه الأرض لا تنفى أبدا ، تتجدد فى أبنائك وذرائك .

ورنا إلى خديجة وسعدية فتدفق الحنان إلى صدره ، وقفز ذهنه إلى حامد فجعل يفكر فيه .

وأطرقت خديجة ، فقد شرد ذهنها وراء عمار تدبر ما تفعله لترضيه ، فغاية ما تصبو إليه فى الحياة أن يدوم رضاه ، فما عادت تحتمل أن تعيش فى الحياة وحيدة بلا صديق .

وانطلقت سعدية ، كلما وقعت عينها على شاب احتلت أقطار رأسها صورة حامد وهو فى ثياب الجندي يقدم إليها المنديل وقد تدلى من أطرافه الخرز الملون ، وأصغت إلى ذلك الحوار الذى دار بينه وبينها كالهمس : « والسنّة

القادمة في بيتي يا سعدية » ، فتشعر خدرا لذيذا يدغدغ حواسها وتفعم بمشاعر فؤارة منبعثة من قلبها ..

ودلفوا إلى الدار ، وطفقوا يتأهبون لاستقبال الليل ، حتى إذا وافى موعد العشاء وفد عمار ، فما كان يغيب عن طعام ، وجلس معهم ، وشرذ قليلا يفكر فيما يقوله فما كان يجلس صامتا ، ثم أشرق وجهه وانبسطت أساريره واعتدل يتأهب ليلقى النادرة التي سيقصها ، فقد كان شغوفًا باللقاء النادر ، قال :

— خرج رجل يسأل الناس أن يعطوه مما أعطاهم الله ، وكان ضعيف البصر ، فانطلق في الطرقات حتى وجد جماعة من الناس ، فذهب إليهم ، ولم يكن يرى مما كان يدور أمامه شيئا ، ولم يفطن إلى أن الجبابة قد جاءوا برجل ليجلدوه ، فتقدم من الرجل وقال له :

— أعطني مما أعطاك الله ..

فقال له الرجل :

— تقدم وخذ عشرين جلدة .

وقهقه عمار وضحكت خديجة ، وأشاحت سعدية بوجهها حتى لا يرى ما ارتسم فيه من ضيق ، كانت برمة به وبحديثه ، وكانت نفسها تحرضها على أن تطلق لسانها فيه ولكنها كانت تجاهد نفسها حتى لا تغضب خالتها .

وصاح عمار أمرا :

— سعدية ، اسقني ..

وتدفقت دماؤها نائرة في عروقها ، ما بال هذا الرجل يأمرهم وينهاهم كأنما هم عبيده وجواريه ؟! إن جدها على الرغم من تقدم سنه يعمل

ويكافح ، بينما هو يمضى فراغه فى القهوة وفى الدار مضطجعا ، وحياته كلها فراغ لكأنه من الأغنياء الوارثين .

وقامت سعدية وهى تصر على أنيابها فى غيظ ، وأحضرت القلة وخطر لها أن تكسرها فى رأسه ولكنها دفعتها إليه فى غلظة ، فتناولها وراح يصب الماء فى جوفه ، ثم دفع إليها القلة وهو يقول :

— خذى ..

فأخذتها وذهبت ولكنها لم تعد ، وفطنت خديجة إلى غضبها فذهبت إليها وقالت لها فى توسل :

— تحمليه يا سعدية إكراما لى .

فقالت سعدية وهى مطرقة :

— اننا نتحمله من أجلك ، ولكن لماذا تتحمله أنت ؟!

فقالت خديجة فى أسى :

— لا زلت صغيرة يا سعدية ، مستقبلك أمامك ، أما أنا فقد أدبر مستقبلى ،

إذا تركنى عمار صرت وحيدة ، وما أمر الوحدة !

فقالت سعدية فى إنكار :

— كيف تكونين وحيدة وأنا وجدى معك ؟.

فقال خديجة فى نبرات حزينة :

— جدك لن يبقى لنا إلى الأبد ، وأنت سرعان ما تذهبين إلى بيت

زوجك .

وصمتت خديجة قليلا ثم قالت :

— إننا نحس الوحشة حتى إذا كنا بين أهلنا ، ليس للمرأة إلا زوجها ..

فقلت سعدية فى عجب :

— ولماذا لا يعمل كما نعمل ؟

— لو عمل يا سعدية لما بقى فى هذه الدار لحظة ، لا يقيه هنا إلا الراحة التى

يعيش فيها ، إنه آخر أمل ، لبتك تفهمين !

ولم تفهم سعدية شيئا ، ولكنها أحست أن حالتها تتوسل إليها فأثر ذلك فى

نفسها فقلت :

— ماذا تريدننى أن أفعل ؟

— ألا تكرهيه .

فقلت سعدية فى حرارة :

— لن أكرهه بعد الليلة ، بل سأعزه إكراما لك ..

فضمتها خديجة إلى صدرها وقد غامت عيناها بالدموع ..

٢٢

شرد توفيق ببصره وأرتسم فى وجهه ضيق وغضب ، وبعد أن خدش

رياض باشا كرامته وانسل وتركه يلوك حنقة لا يجد منفسا لمشاعر الأسى التى

راحت تمر فى جوفه ، ودخل عليه بعض خاصته ممن كانوا ملتفين حول أبيه

من أصحاب المطامع التى لا تهدأ ، الذين ذاقوا لذائذ الاستبداد بالناس

وامتصاص رحيق جهودهم دون أن يقف بينهم وبين ضحاياهم سلطان

أو قانون ، فلما رأوا وجه الخديو متغيرا قالوا له فى ملق :

— ما الذى أهم مولانا ؟

— ما دخل على رياض إلا أغضبني .

— وكيف جرؤ على إغضاب ولى نعمه ؟

فقال توفيق فى مرارة :

— كلما أردنا أن ننعم بالرتب والنياشين على من يستحقون إحساننا

عارض فيما عزمنا عليه ولج فى معارضته .

— اضربوا يا مولانا بمعارضته عرض الحائط وافعلوا ما تشاءون .

فقال توفيق فى ضعف :

— إذا اشتد الجدل بيننا وأصررت على فعل شئ ، هددتدخل القناصل ،

فهم يؤيدونه .

ورأوا الفرصة سانحة ليوغروا صدر الخديو على رئيس وزرائه ، وأن

يوسعوا شقة الخلاف بينهما . كانوا يمتنون رياضاً لأنهم أحسوا أنه لم يبق لهم

التصرف المطلق فى الأعمال والمصالح ، وأن الأحكام تجرى عليهم كما تجرى على

عامة الشعب ، فقالوا :

— إنه يهدف فى كل ما يفعله إلى رعاية مصلحة الأجانب ، حتى يضمن

تأييد الغرب له .

— ولكن أمره بدأ يتكشف للناس بعد الحملات القوية التى يشنها عليه

أديب إسحاق ، فقد ذاع بين الناس الاسم الذى أطلق عليه ، فإذا ما تحدثوا

عنه قالوا : غلادستون رئيس وزراء إنجلترا ، ورياضستون رئيس وزرائنا ،

لقد قرأ فى أذهان الناس أنه راعى المصالح الإنجليزية فى مصر .

وجاء أحدهم بجريدة القاهرة التى كان يصدرها أديب إسحاق فى أوروبا

وينفق عليها الخديو السابق ، وكان لا هم لها إلا تجريح رياض ورميه بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد إلى الأجانب ، فقد حقد أديب على رياض باشا لأنه ألغى له جريدة كان يصدرها .

راح الرجل يقرأ مقالة ساخرة كلها طعن في رياض ووطنيته ، فأحس توفيق راحة وانبسطت أساريره ، فشجع ذلك بطانته على أن يسرفوا في السخرية من رئيس الوزراء الذى يبغضه الخديو .

وأخذ أحدهم يقلد رياضاً في كلامه وفي حركاته أثناء خطابه ، ثم مشى مثله في خيلاء ، ثم جلس شاخاً برأسه وقد رفع صدره في كبرياء ، فبدت تواجذ الخديو من الضحك ، وشاء أحدهم أن يجهز على رياض والفرصة مواتية ، فقال :

— سمعت يا مولانا أن مطامع رياض لا حد لها ، وأنه يتقرب من القناصل ليؤيدوه في مطامعه .

فقال توفيق في لهفة :

— وفيم يطمع ؟

فقال الرجل ينفث سمومه :

— يقال انه يطمع في مسند الخديوية .

اربد وجه توفيق وأفعم بالغيظ ، وتحرك عقارب الغيرة تنهشه وتغذيه ، وصدق ما قيل له فراح ذهنه يعمل ليستريح من رئيس وزرائه الطامع في ملكه ، وقال قائل :

— اعزله .

فقال توفيق في ضعف :

(قلعة الأبطال)

— سيعارض قنصلا لإنجلترا وفرنسا في عزله لو أردنا ذلك .
وأطرقوا جميعا يفكرون ، ثم قال أحدهم :
— أتذكرون يا مولانا ما فعله والدكم ليتخلص من نوبار باشا ؟!
وارتفعت أصوات التأكيد تصيح :
— هذا هو الرأى .

كانت الفكرة تناسب طبع الخديو فأعجب بها ، فما كان قويا ليجهز برأيه ويتشبث به ، بل كان يميل إلى نسج المؤامرات والسهر على تنفيذها في الظلام ، فوطن النفس على أن يكيد لرياض ، وأن يؤلب الخانقين عليه في الخفاء دون أن يظهر .

أخذ توفيق يستدنى منه على بك فهمى أمير آلاى الحرس ، ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمارحه ، ويدس له في أحاديثه ما يوغر صدره وصدور إخوانه من الضباط على رياض ، قال له ذات يوم :

— أردت الإنعام عليك بألف جنيه ولكن رياض باشا عارض في ذلك .
وقال له في إحدى الأمسيات التى كانا يمضيانها معا :
— أردت الإحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا .

وحدثه مرة عما يبيت له ولزملائه رياض باشا وعثمان رفقى باشا وزير الحرية ، ليحرماه وإخوانه من المصريين الترقية تعصبا للضباط الجراكسة ، فتيقن على بك فهمى أن رياض باشا عدو منفعة ومنفعة إخوانه ، وفطن إلى أن الخديو ساخط على رئيس نظاره . فراح يتصل بالضباط الكبار يناجيهم ويثبهم مخاوفه ، ويحرضهم على الثورة على رياض باشا ووزرائه .

واستمر رياض فى عمله لا يحتاج فكره رينة فى سكون المصريين إلى الطاعة

فى كل ما يؤمرون به ، حملا لهم على سالف عهدهم ، وما دار بخلدّه أن نار الثورة عليه بدأت تتأجج فى الصدور ، وأنها توشك أن تندلع وراح توفيق يرصد الحوادث متلهفا ، فما كانت له أمنية إلا عزل رياض ، وما درى أنه يوم شجع على بك فهمى أمير آلاى حرسه على رئيس وزرائه قد أطلق المارد من قمقمه .

٢٣

كان الضباط المصريون فى خطر وفرع ، فقد ناصبهم عثمان رفقى باشا ناظر الجهادية العداء وراح يصدر القوانين الجائرة بهم ، فما كان يجب أن يراهم سواسية كالسادة الجراكسة الكرام ، كان جر كسيا متعصبا فأراد أن يتخلص من كبار الضباط المصريين يستبدل بهم آخرين من جنسه ، فقد كانوا فى عينيه كالقذى ، ألف أن يرى أبناء الفلاحين مهانين أذلاء فكبر عليه أن يراهم فى الصدارة ينازعون الجراكسة الصولة والسلطان .

وشاء عثمان رفقى أن يطعن كرامة الجنود المصريين ، فأمر أحمد عرابى أن يقوم وجنده بحفر الترعة التوفيقية ، فأبى عرابى أن يخضع لهذا الذل ، ورفض أوامر ناظر الجهادية المهينة للجنندية ، فما كان ليرضى أن يعمل جنوده سخرة حتى فى أراضى الخديو .

وضاق عثمان رفقى بعرابى ، رفض أوامره وجرح كبريائه كأنما لم يكن كافيا ما فعله به قبل استعفاء وزارة شريف باشا ، فقد حرض الضباط على أن

يقدموا عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها عزله لرداءة المآكل وضررها بصحة العساكر ، ولسوء جال المستودعين وعدم النظر في إصلاح معاشهم .
ان أحمد عراى يبغضه ، وهو يكرهه من كل قلبه ويتمنى أن يتخلص منه فراح يفكر فيما يفعله وينفذ ما يفكر فيه ، فدبر مشاجرة يشترك فيها أحمد عراى وجنوده مع بعض أعوانه ، وكان يرجو أن يقتل عراى فى المشاجرة ، ولكن حب جنود عراى له والتفافهم حوله كان ينجيه من مكايده رفقى وأعوانه المتربصين به .

وكان عثمان رفقى يمقت أحمد عبد الغفار قائم مقام السوارى ، وكان بينه وبينه منافرة ، وقد عرف الخديو ما بين الرجلين فقد شكاه عثمان رفقى تصرف أحمد عبد الغفار معه . فوطن توفيق العزم على أن يدنى عبد الغفار منه ، فقد كان يعطف على الثائرين فى وجه رياض ووزرائه .

كان الخديو يخرج كل يوم للتنزه ، فكان يستدعى أحمد عبد الغفار فى طريق منتزه الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرا ميله إليه ، فلما بلغ ذلك عثمان رفقى أجمع نار عداوته لعبد الغفار .

وعاد نجم الدين باشا من الحج ، فأقام وليمة فاخرة فى بيته دعا إليها كبار رجال الجيش ، فوفد إلى المكان بعض أمراء الجيش الجراكسة وبعض الضباط المصريين ، وأقبل أحمد بك عراى بقامته الطويلة يتقدم فى بطء قوى البنية لكأنما كان يمثل تلك القوة العظيمة التى اشتهر بها الفلاح المصرى ، وجلس قريبا من الفريق لإسماعيل باشا كامل وهو من أصل جر كسى ، وراح عراى يتحدث فكان فى إشاراته ذلك البطء الذى منحه مظاهر النبل العريق .

مال الفريق لإسماعيل باشا كامل إلى الجالس إلى جواره وقال له :

— إن ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه ، عزل أحمد عبد الغفار من قائممقامية السوارى وعين بدله محمد شاكر بك .

فمال الرجل على عرابى وهمس له فى أذنه بما سمع ، فقال عرابى للفریق :
— أحق هذا ؟

— نعم ، وقد شرع فى سن قانون يمنع ترقى المصریین العاملين فى الآلات تحت السلاح ، وقد سلمت الأوامر إلى الكتاب للإجراء بمقتضاها
فقال عرابى وهو يهز رأسه :

— هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها .
وجاء ضابط يتلفت ، حتى إذا ما رأى أحمد عرابى ذهب إليه وقال له :
— إن كثيرا من الضباط ينتظرونك بمنزلك .

فقام معه وانصرف يغذ السير وقد أخذت المشاعر الفوارة تنفجر فى جوفه ، ولما بلغ داره ألقى الأمير الای عبد العال حلمى حكمدار الآلاى السودانى ، والبكباشى خضر أفندى ، والبكباشى محمد أفندى عبيد ، والأمير آلاى على بك فهمى أمير آلاى الحرس الخديوى ، والقائم مقام أحمد عبد الغفار ، فلما رأوه انطلقوا إليه يصيحون فى ثورة :

— أبلغك ما فعله عثمان رفقى ؟! عزل أحمد عبد الغفار ، وسن قانونا يمنع الترقى من السلاح .

فقال عرابى :

— قد سمعت هذا من غيركم ، فماذا تريدون ؟

قالوا :

— وليس الأمر كذلك فقط ، بل إنه قد كثر اجتماع العنصر الجرکسى فى

منزل خسرو باشا الفريق ، وهم يتذاكرون في تاريخ دول الممالك في كل ليلة بحضور عثمان باشا رفيق ، ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم ، وإنهم لا يغلبون من قلة ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك الممالك من قبلهم .

فقال عرابي :

— وماذا تريدون إذن ؟!

— إنما جئناك لنرى رأيك

— رأيي أن تترشوا وتهذبوا روعكم ، وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا إليهم النظر في مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم إذا أرادت الحكومة به شرا .

— إنما فوضنا إليك هذا الأمر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك .

كلا بل انظروا غيري ، وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدي

بـ إنما لا نبغى غيرك ولا نثق إلا بك .

— إن الأمر عصيب ، والحكومة ستقتل من يتصدى له إذا ظفرت به .

— نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا .

— أقسموا لي إذا على ذلك .

— نقسم بالله العلي العظيم أن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا .

وأفعم المكان بالحماسة فقال عرابي :

— ماذا نحن فاعلون ؟

فقال عبد العال حلمي في ثورة :

— نصطحب قوة ونذهب إلى منزل عثمان رفقى ونقبض عليه أو نقتله :
فقال عرابى ناصحا :

— كلا يجب أن نقدم عريضة أولا لرئيس الوزراء ، فإذا لم يقبل نقدم
عريضة أخرى للخدوى .
— هذا هو رأى .

وراح عرابى يكتب العريضة التى سيرفعونها إلى رياض باشا رئيس
الوزراء ، يطلب فيها عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبناء الوطن ،
وتأليف مجلس نواب من نبهاء الأمة ، وإبلاغ الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندى ،
ولما انتهى من كتابتها تلاها على الحاضرين فوافقوا عليها ، وختمها عرابى بختمه
وختم على بك فهمى وعبد العال بك فهمى ، ثم راحوا يتدارسون الموقف
ويضعون الخطط لحفظ الخديو والوزراء من غدر الضباط الجراكسة وصيانة
المصارف وبيوت التجارة ، وحفظ الأمن ، وانصرفوا يرقبون الغد وفى
صدورهم نار تتأجج .

انطلق عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى ديوان الداخلية ، وقدموا إلى وكيل الداخلية العريضة وطلبوا منه عرضها على رئيس النظار فذهب الوكيل ثم عاد وقال لهم :

— الرئيس يريد أن يراكم .

فدخلوا عليه ، فهش لهم رياض وقال لهم :

— اطمئنوا ، سأنظر فى الأمر وسأخذ الحق مجراه ..

وشاع بين الناس خبر طلب الضباط عزل ناظر الجهادية ، وأحس الأعيان والموظفون وجود خلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب جميع الراغبين فى تغيير الحال يتاوتون الوزراء . اتحدت وجهتهم وإن اختلفت الدواعى والبواعث .

كان شريف باشا وعمر لطفى وسلطان باشا من أعداء حكم رياض ، فألفوا جمعية حلوان لمناوئته ، فراحوا يطبعون المنشورات السرية يحرضون الشعب فيها على المطالبة بمجلس النواب ، كان شريف مؤمنا بالمطالب الوطنية ، وأما عمر لطفى فقد كان من رجال السراى ، ولكنه انضم لهما لأنه كان يرى أن خير وسيلة يبسط بها سلطانه على البلاد أن يسيطر على النواب ، فلما بلغهم نبأ تدمير الضباط بعثوا إليهم يؤيدونهم فى مطالبهم ، ويقولون لهم إنها موافقة للرغائب الوطنية ...

ورأى المتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه الفرصة سانحة لكشف كرتهم ، فهرعوا يؤيدون الضباط لعل في تبديل الوزارة إعادة الأمن إلى نفوسهم الوجلة الخائفة .

وحسب الأغنياء أن في سقوط الوزارة استعادة سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها ، فبعثوا إلى الضباط يقولون لهم إن ما يأتيه ناظر الجهادية لا يمكن الصبر عليه ، أو معالجته بالحكمة والروية .

وضجر البارون دى رنج قنصل فرنسا من رياض فقد كان يعارض بعض رغباته ، فرأى أن يسعى في الانتقام منه ، فقد يأتى خلف له يمكنه مجاراته في مطالبه .

ومشى إلى الضباط من يقول لهم إن جناب الخديوى لا يأبى لإجابة طلبهم بل يجب أن يحقق لهم أمنيته ، ولكن رياض باشا لا يريد ذلك ويعارضه .
وطالت مدة التردد في حسم المسألة ، فكثرت الشائعات وقويت عزائم الضباط ، وغلب الظن بضعف الحكومة ، فلما انقضى أسبوع على تقديم العريضة ، ذهب عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى بيت الرئيس وسألوه عما تم في أمر عريضتهم ، فقال لهم رياض :

— إن ما أودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجاً عما حدده لكم القانون ، وتلك مهلكة سياسية ، فقد يخشى أن يعد الأجانب ذلك سبيلاً لزيادة تدخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها .

فقال له عرابى :

— اننا لا نطلب إلا حقاً وعدلاً ، وليس في طلب الحق من خطر ، وأنا

نعتبرك أباً للمصريين فما هذا التلويح والتخويف ؟ .

— ليس في البلاد من هو أهل لأن يكون عضوا في مجلس النواب .
— إنك مصرى ، وباقي النظار مصريون ، والخديو أيضا مصرى .. أتظن
أن مصر ولدتكم ثم أعقمت ؟ كلا فإن فيها العلماء والنباء .. وعلى فرض أن
ليس فيها من يليق لأن يكون عضوا في مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس
يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة إبتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام
رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة في مشروعاتها
الوطنية ؟

فقال الرئيس في هدوء :

— سننظر بدقة في طلباتكم هذه .

أحس البارون دى رنج بما دار بين الرئيس والضباط ، فأرسل إلى عرابى
وصحبه يقول لهم إنه يسره ما يراه من صلاتهم في عزيمتهم واشتدادهم في
المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعفهم ما يهددون به ،
فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الإمكان أن
حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في
الانتصاف لأنفسهم ولأبناء بلادهم .

انكشف ذلك الوهم الذى كان مسيطرا على العقول وفضحه قول
البارون ، فقد اتضح أن رياض باشا لم يكن مؤيدا في منصبه بقناصل الدول
ذات النفوذ ، فراح عرابى وصحبه يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على
مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم ، وطلب عزل ناظرها
الذى حسب أن مصر تدفع له راتبه لإذلال أبنائها .

وقوى صوت الضباط وتوتر الجو ، فانعقد مجلس النظارة برئاسة الخديو

حل هذه الأزمة التي توشك أن تنعقد حلقاتها .
جلس الخديو في الصدارة والأفكار تتزاحم في رأسه ، كان يفكر في أن
يشعل نار الضباط حتى يثوروا على رياض ويرغموه على الاستقالة فهذه أمنيته
الكبرى ، وجلس رياض إلى يمينه وهو يرجو أن يخرج من هذه الورطة بما يحقق
العدالة ، وجلس عثمان رفقى منفوشا نائرا لا هم له إلا أن يمرغ أنوف هؤلاء
الضباط الفلاحين في الرغام ، وتناثر الوزراء حول المائدة ، واندس رجال
المعية بين الوزراء يوجهونهم إلى ما يرضى ولى النعم ! .

وبدأ رياض باشا يتكلم فقال :

— أرى أن يحال ما فى التقرير على مجلس عسكرى ينظر فى جميع أطرافه ،
فما كان لهم حق منحوه ، وإن استحقوا عقوبة وقعت عليهم .
فغضب عثمان رفقى ، فلو أخذ بهذ الرأى لأحيل إلى مجلس عسكرى ،
ولو قف أمامه جنبا إلى جنب مع هؤلاء الفلاحين الذين يمتقنهم مقتا ، فقال فى
انفعال :

— لابد من القبض على الضباط الثلاثة والحكم عليهم بالعقوبة التى
استحقوها بجراأتهم هذه .

وارتفعت أصوات بعض الوزراء ورجال المعية :

— هذا هو الرأى .

فهب رياض يعارض ولا يلين ، ويتمسك بضرورة إحالة التقرير إلى مجلس
عسكرى ، ووجد توفيق الفرصة مواتية لإحراج رياض فقال :

— رأى اعتقال هؤلاء الضباط ومحاكمتهم .

ولم يترشح رياض عن موقفه ، فطن إلى أن الطعنة مسددة إلى صدره فراح

يدافع عن رأيه دفاع المستميت ، واستمر الجدل إلى أن جاء وقت الظهر ولم يستقر رأى المجلس على شيء ، فقاموا إلى المائدة يتناولون الغداء .

فرغوا من طعامهم وتأهبوا للرجوع إلى مداولاتهم ، وقبل أن يدلفوا إلى قاعة الاجتماع ، اقترب طلعت باشا أحد رجال المعية من رياض وأسر إليه : — إن بعض الناس يتهم دولتكم بمجاعة الضباط والأخذ بناصرهم طمعا في أن تملك قلوبهم ، ثم تستخدمهم في الاستيلاء على الخديوية المصرية .

واندكت مقاومة رياض ، وأصبح كالفأر الحائر في المصيدة لا يدرى أين الخلاص ، فلما عادوا إلى الجلسة لاذ بالصمت لا ينبس بكلمة ، ولاحظ توفيق في وجهه الهم والضيق فالتفت في جوفه بسمة وإن لم ترتسم على شفتيه .

وتحدث الخديو فمال المجلس إلى رأيه ، فأحس رياض هماً ثقيلاً ، والتفت إلى عثمان رفقى وقال :

— هل تتحمل تبعة هذا الأمر ؟

فقال عثمان رفقى في اندفاع :

— نعم .

وجاء أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ، وراح يتلو الأمر العالى : « إن الأمراء الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى مفسدون ، وإنه لذلك يقتضى إيقافهم من الخدمة ، ومحاکمتهم على إفسادهم ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة ناظر الجهادية ، ويكون من أعضائه ستون باشا رئيس أركان الحرب ، ولارى باشا ناظر المدارس الحربية » .

وشمخ عثمان رفقى برأسه ، وأشرق وجه الخديو ، وأطرق رياض يحس قهرا .

٢٥

صدر الأمر العالى بمحاكمة أمراء الجيش الثلاثة ، ولكنه لم ينفذ بقوة الحكومة وسطوتها ، بل سلك عثمان رفقى فى تنفيذه عن طريق الحيلة والغدر ، فكتب إلى عرابى وعبد العال وعلى فهمى يدعوهم إلى ديوان الجهادية للمذاكرة فى ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة جناب الخديو ، فلما وصلت إليهم الدعوة دهشوا ، فما كان موضوعها يحتاج إلى مداولة ثلاثة من أمراء الآلايات وفى هذا الوقت بالذات ، ففطنوا للحيلة ، وأرسلوا إلى من يثقون فيهم من الضباط ، فلما جاءوا أطلعوهم على ورقة الدعوة ، فقال قائل : — هذه خدعة ، سيستدرجونكم إلى قصر النيل ثم يقبضون عليكم ، وبعدها يبطشون بكل ضابط مصرى .

فقال عرابى :

— يريد عثمان رفقى أن يخدعنا ويبطش بنا كما فعل محمد على باشا بأمراء المماليك حينما دعاهم إلى وليمة القلعة وبطش بهم .

وارتفع صوت يقول :

— أين نحن من زفاف جميلة ؟ فما حان بعد زمن الزفاف . إنها خدعة مكشوفة .

— وماذا نحن فاعلون ؟

فقال البكباشى محمد عبيد :

— يلينى أمراء الجيش الدعوة ، وعلينا أن نسهر على سلامتهم .

وقال البكباشى خضر خضر من الآلاى السودانى :

— سنقاوم الشر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك .

وانطلق الأمراء الثلاثة إلى قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الآلاى الأول ، آلاى الحرس الخديوى ، بعثهم البكباشى محمد عبيد الذى كان يرقب الحوادث ينتظر ما تتمخض عنه الأحداث .

ودلف عراى وعبد العال وعلى فهمى إلى ديوان الجهادية وإذا به غاص بالضباط الجراكسة ، وإذا العيون تصوب إليهم تنطق بالخيانة والغدر وإذا الابتسامات الخبيثة ترف على الشفاه ، وإذا بأيدي الضباط الشبان تمتد إلى الطبنجات ، وفاض السرور بوقوع الفريسة فى الشرك ، فانطلقت ضحكات الغبطة تدوى فى المكان ، واستمر عراى وعبد العال وعلى فهمى فى تقديمهم حتى بلغوا مكان ناظر الجهادية عثمان رفقى العدو الألد .

حيوه التحية العسكرية وأعاروه سمعهم ، وإذا بهم يسمعون وقع أقدام جنود تقترب ، وراح ناظر الجهادية يتلو عليهم أمر القبض عليهم ، وتقدم منهم بعض الضباط الجراكسة وجردوهم من سيوفهم وساقوهم إلى السجن فانطلقوا بين صفين من ضباط الجر كس المسلحين بالطبنجات .

وأغلق عليهم الباب فأطرقوا محزونين ، وزاد فى حزنهم تقاذف الشتائم عليهم ، ومر خسرو باشا كبير الجراكسة بباب السجن وهتف ساخرا :

— ايه ، يا فلاحين يا شغالين بالمقاطف .

وتأوه على فهمى وقال فى حزن :

— لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار .

واشتد جزعه حتى هم بأن يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة .

عاد عيون البكباشى محمد عبيد إليه ، وأخبروه أن عراى وعبد العال وعلى

فهمى قد ألقى القبض عليهم وسجنوا فى قصر النيل ، فهرع محمد عبيد إلى

حامل البروجى وصاح به :

— اضرب نوبة طابور .

ودوى صوت البروجى فى ثكنات عابدين ، وخف الجند يصطفون

صفوفا ، فأسرع القائم مقام المعين حديثا بدلا من على بك فهمى أمير آلاى

الحرس الخديوى إلى عبيد وصاح فيه :

— ماذا فعلت ؟ .

— فعلت ما ترى .

— لماذا تجمع الجند ؟

— لأنقذ إخواننا الذين غدرتم بهم .

— إذا تحركت من هنا أمرت بقطع رأسك ، أنا أمير الآلاى .

فلم يلتفت إليه وأمر بعض جنوده :

— اقبضوا عليه .

— فانتقض الجنود على أمير الآلاى الجديد وساروا به ليضعوه تحت

الحفظ .

وانسابت فرق الحرس فى ميدان عابدين ، ووقف الخديوى فى شرفة

السلامك حانقا غاضبا ، وصاح بحامل البروجى أن يضرب نوبة حضور

الضباط ، وجلجل صوت البروجى ، وانتظر الخديو ولكن لم يذهب إليه أحد ، بل اندفع الجنود إلى قصر النيل لإنقاذ عرابى وصاحبيه ووصل الجنود إلى قصر النيل ، فقال محمد عبید لزميله على أفندى عيسى البكباشى :

— اذهب بفرقتك إلى الجهة الخلفية ، وسأذهب بفرقتى إلى الجهة الأمامية .

وأمر فرقة من العساكر أن تقتحم الديوان الذى أوصدت أبوابه ومنافذه للبحث عن أمراء الجيش المحبوسين ، وإطلاقهم من سجنهم .
واندفع الجنود يحطمون الأبواب ، ثم انسابوا إلى ثكنات قصر النيل وقد كسروا عن أنيابهم ، فلما رآهم الضباط الجراكسة أطار الرعب قلوبهم فراحوا يفرون مفزوعين يقفزون من النوافذ ، وأطلقوا لسيقانهم الرمح لا يلوون على شيء ، وطفق عثمان رفقى يهرول وهو يرتجف ، وانطلق إلى سراى عابدين يحتفى بالخديو .

وأخذ الضباط والجنود يحاولون فتح الباب الذى أغلق على عرابى وعبد العال فهمى ، فلما امتنع عليهم حطموه ، ثم اندفعوا كالسيل يتعانقون وقد اغرورقت العيون . وخرج الضباط الثلاثة ظافرين ، وأخذت هتافات الفرح تتردد بين جنبات قصر النيل ، ووقف عرابى خطيباً فى الجنود ، وقال :

— أتوسل إليكم بأن لا تمتد أيديكم بسوء إلى أحد من الجراكسة ولا إلى غيرهم من الضباط لأنهم إخواننا ، ولئن آثروا أنفسهم علينا ، فإننا لا نريد إلا النصفة والمساواة .

ونظر عراى فألفى إلى جانبه إسماعيل باشا كامل فعانقه أمام العساكر ثم قال :

— إن هذا الباشا جر كسى ولكنه أخى ، حرام علينا دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة ، فانصرفوا على بركة الله إلى مراكزهم .
وعاد الحرس الخديوى إلى ثكناته بعابدين ، وذهب عراى إلى مركز الآلاى ، وطلق الجنود يغدون ويروحون يحسون فى أعماقهم أنهم خلقوا خلقا جديدا ، فقد رأوا اليوم القواد الجراكسة يفرون أمامهم كالأرانب المدعورة :

وبلغ البكباشى خضر خضر نبأ القبض على عراى وصاحبيه فأحس الدماء تندف حارة فى عروقه ، فخرج بالآلاى السودانى من طرة ، وانطلق لينقذ من أقسم على إنقاذهم إذا ما حاق بهم خطر ، وفيما هو فى الطريق بلغه خبر إنقاذهم ، فذهب بجنوده إلى ثكنات عابدين ليطمئن على الضباط الثلاثة ويحييهم .

وانساب الآلاى السودانى فى ميدان عابدين فاستقبله آلاى الحرس بالعظيم العسكرى وهو حامل سلاحه ، وأسرع البكباشى خضر خضر إلى حيث كان عراى ، وتعانق الرجلان .

ووقف عراى يخطب الضباط والجنود ، فقال :

— أوصيكم بالهدوء والسكينة ، إننا لا نطلب إلا العدل والمساواة مع إخواننا الجراكسة والأتراك ، وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى ، ونريد كذلك مجلسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا وإخواننا من ظلم المستبدين الظالمين .

(قلعة الأبطال)

وأرسل عرابي إلى البارون رنج قنصل فرنسا يلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل أن الضباط لم يأتوا أعمالاً إلا ما يقى أرواحهم ويضمن لهم إقامة العدل فيهم ، وأنهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه .

كان البارون يكره رياض باشا ويؤيد جميع الحركات التي تخرجه ، فأرسل إلى عرابي يثنى على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة ، ويبشره أنه لا خوف عليه ما دام الحق في جانبه .

ووفد الليل والموسيقى تعزف السلام الخديوي ، والعساكر تهتف باسمه ، وشدت الحراسات ، وأخذ الليل يتصرم وقد أرهفت الحواس وتفتحت العيون ، وكان حامد في الميدان مع إخوانه الجنود يستشعر زهوا ، تذكر جده الشيخ فأشرق وجهه بابتسامة ، كان كلما عاد إلى القرية وجلس إلى جده لا يجد عنده ما يقصه عليه ويستحوذ على لبه ، وكان يرنو إلى يوسف في غيظ وهو يتحدث والشيخ يعيره سمعه ، أما وقد شاهد اليوم كل هذه الأحداث العظام وشارك فيها ، فسيجد ما يقص نبأه على الشيخ ويسترعى انتباهه .

وقفزت إلى رأسه صورة سعدية فتفجر الحنان في جوفه ، وخفق قلبه في صدره ، وغمرته نشوة عارمة .

قصر عابدين غاص بالوزراء ، وقواد الجيش من الجراكسة الذين فروا
مرعوبين من قصر النيل خشية بطش الفلاحين بهم ، وقناصل الدول الذين
خفوا إلى الخديو ينصحون بإجابة طلبات الجيش حسما للنزاع ومنعا
للخطر ، فما عاد للحكومة هيئة ، ولن تستطيع أن تعيد بالقوة الأمور إلى
نصابها .

وأطرق توفيق مهموما ، كان يريد لها ثورة ضد رياض فإذا به أول من
يكتوى بنارها ، عصى ضباط الحرس وأوامره ولم يلبوا نداءه لما انطلق البروجي
يدعوهم للتجمع عند سلامك الخديو ، وراح الوزراء يتشاورون في الأمر
فقال محمود سامى البارودى :

— إني أرى العساكر على الطاعة بدليل هتافاتهم باسم الخديو وأن الموسيقى
تعزف بالسلام الخديوى ، فلو أجيبت طلباتهم لانحسنت المسألة بسلام .
فقرر الخديو والوزراء تعيين محمود سامى البارودى وخيرى باشا رئيس الديوان
الخديوى لمفاوضة الضباط ، فانطلق الرجلان إلى ثكنات القصر وقابلا عرابى
وصاحبيه وقالاهم :

— ماذا تريدون ؟

— إننا على الطاعة ولا نريد إلا الإصلاح

فقال خيرى باشا :

— وما هو الإصلاح ؟

— هو ما أوضحناه بعريضتنا ، ورغبتنا هي أن يبدأ بعزل ناظر الجهادية عثمان رفقي باشا ثم يشرع في تنفيذ باقي الطلبات .

وعاد الرسولان إلى الخديو وأفضيا إليه بالخبر ، فظل توفيق على عبوسه فلو أن هؤلاء الثائرين طلبوا إسقاط الوزارة كلها لاستراح من رياض ، ولكن هناك ما يعوضه عما ناله من هوان ، وما كان أمامه إلا أن يذعن لطلبات الجيش فأعاد الرسولين إليهم ليخبراهم أن الخديو قد وافق على طلباتهم .

وعاد خيرى باشا ومحمود سامى باشا إلى الضباط وقالوا لهم :

— قبل الخديو طلباتكم وعزل ناظر الجهادية ، فاختاروا ناظرا غيره .

— لا خيرة لنا ، إنما نريد ناظرا وطنيا يعينه الخديو .

فقال خيرى باشا :

— إن الخديو فوض إليكم اختيار الناظر حتى لا تشكوا فيما بعد ..

فالتفتوا إلى محمود سامى البارودى باشا وقالوا :

— إننا نرضى بتعيين محمود سامى باشا هذا ناظرا للجهادية .

وعين محمود سامى البارودى وزيرا للجهادية ، فرضى الضباط بهذا التعيين وأرضى المطالبين بالدستور ، فمحمود سامى من رجال شريف باشا والمصلحين المطالبين بالحياة النيابية ، وإن قبل أن يشترك مع رياض فى وزارته . وانصرف الجنود إلى ثكناتهم ، وأطرق رياض باشا يفكر فى أسباب هذه الجرأة التى أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة ، مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتنزيه الحاكم عن أن تتناول إليه الأوهام بالمقاومة ، فانحصرت كل الأسباب

عنده في البارون دى رنج قنصل فرنسا الجنرال ، لهذا سعى لدى الخديوى في أن يطلب من رئيس الجمهورية الفرنسية استدعاءه من مصر ، فورد الجواب بقبول الطلب ، فتنفس رياض الصعداء فقد حسب أنه تخلص من عدوه ، وأن وجه البلاد سيخلو له .

لم يدر في خلده أن جذور الثورة أعمق مما ظن ، وأن البارون لم يكن الباعث لهذه الثورة ، بل شهد ناراها تتأجج فألقى فيها بعود حطبه لعله يحرق رياض باشا الذى كان يكرهه ، وما خطر له أن أعداءه أكثر مما فكر ، فالخديو لا يرضى عنه ، والباحثون عن مجلس النواب يرونه عقبة في سبيل تحقيق آمالهم ، وثقته في بعض ضعاف العقول من الحكام نفرت الناس منه ، ومناوأته لأصحاب النفوذ من الأغنياء فضت الذوات عنه . حسب أنه قد استراح بعد خروج البارون من مصر ففوض ناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق الخيم في المراكز العسكرية ، وما فطن إلى أن ناظر الجهادية ضالع مع الضباط في الوطنية ، وأنه معجب بحرکتهم يرى فيها تخلص البلاد مما تقاسى من كبت ، وما أن يتصل بهم حتى يصبح المدافع عنهم ، الساهر على أمنهم ، المحذر لهم مما يدبر لهم من مكاييد ودسائس تنسج بين القصر والوزراء .

وراح الخديو يفكر فيما وقع ، فاستشعر أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد ، وكان يرى في رياض منافسا له ، وإذا بمنافس جديد أشد خطرا منه يظهر في الميدان .

وكان توفيق بطبعه يميل إلى الجانب الأقوى ، فوطن النفس على أن يتقرب من الجيش ولو أنه قد جرح كبريائه ، فأرسل إلى على بك فهمى أمير آلاى

الحرس وقال له :

— تعرف يا على بك مكاتتك عندي ومقدار حبى لك وعطفى عليك ، إن
ما وقع بالأمس لن يغير ما فى صدرى وأحب أن تنساه .

فقال على بك فهمى :

— إننا لا نطمع إلا فى رضا مولانا وعطفه .

— سأعفو عما مضى ، فادع جميع ضباط الآلاى إلى هنا .

وذهب على بك فهمى واستدعى جميع ضباط الآلاى إلى سراى عابدين ،
واصطفوا أمام توفيق يقسمون للخديو يمين الطاعة والفداء ، وأقسم لهم
الخديو يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى .

أحس عراى أن الخديوى يريد أن يتخذ من هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف
بها ما بقى منه ، فإذا أراد الخديو أن يريح نفسه من عبد العال لم يستطع آلايه
أن يفعل مثل ما فعل الآلاى الأول مع الضباط الثلاثة ، فإذا ما استراح من عبد
العال انقض على عراى يجهز عليه ، ثم إذا استراح من كليهما رجع على على
فهمى وضباطه . فأراد عراى أن يفسد عليه تدبيره فالتمس من الخديوى أن
يدخل فيما دخل فيه على فهمى من يمين الأمان ، فوجد توفيق نفسه مضطرا
إلى بذل هذا القسم ، فأقسم لعراى يمين التأمين ، وإن كان صدره يتأجج بنار
الحقد ويكاد يدمى من أظافر الغيرة التى كانت تنهشه .

أحس عراى أن دخوله فى يمين الخديو لا يكفى فى وقايته فما كان يجهل
قيمة الأيمان ، فأخذ يحتاط لنفسه ولإخوانه ، فأقام الحرس على بيته وبيوت
مشاركه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة فى أرض مصر .

ذاع اسم عرابى بين الناس ، وراح الشعب يتحدث عن الفلاح الذى
تحدى الحكومة فى إعجاب ، وأقبل كثير من الأعيان والمشايخ على الاتصال
به ، فكان يحدثهم فى تواضع جم ، فجذبهم إليه بابتسامته العذبة ورقته الأصيلة
وبيانه المتدفق الذى كانت قلوبهم تتفتح له .

أدرك الشعب أن عرابى واحد منهم فتركزت فيه كل آمالهم ، وكان أول
فلاح منذ قرون يصعد إلى ذروة الشهرة السياسية ويثور فى وجه الظلم الذى
ران على البلاد ، فخفقت له الأفئدة وهرع إليه المظلومون يثبونه آلامهم ،
فهطلت عليه من أنحاء البلاد العرائض المفعمة بالشكوى والآمال فى العدل
والنصفة والإحسان .

وأحس الجنود لأول مرة زهوا بأنفسهم ، فقد صاروا محط رعاية الأهل
والصحاب كلما عادوا إلى قراهم فى إجازتهم ، كان الفلاحون يلتفون حولهم
يسألونهم فى لهفة عما فعله عرابى فيقصون عليهم أنباءه فتنبثق الأمانى فى
صدورهم ، فقد وجدوا فيه النبراس الهادى إلى طريق الخلاص .

وسار حامد فى طريق القرية مرفوع الرأس ، يحس العيون تصوب إليه وإن
كانت الدنيا ظلاما فى ظلام ، وعرج على الدار وطرق بابها فى لهفة ، فهو فى
شوق إلى أن يجلس إلى جده يروى لهم ما وقع فى قصر النيل ، وما جمعه من
الجنود ومن أحاديث الناس ، وما كان ينمقه فى ذهنه طوال الطريق .

كان عمار يتحدث عن نواذره في حرب الحبشة ، وكان يوسف كلما مر بالدار يستحوذ على لب الشيخ بما يدور بينهما من حديث عن الأزهر ، وكان حامد يلوذ بالصمت لا يجد جديدا يقصه ، أما الليلة فسيكون قطب الرحي ، وستصوب إليه العيون وترهف له الأذان .

وفتح الباب وندت من سعدية صيحة فرح ، ثم راحا يتصافحان والعيون تتحدث والقلوب تترنم بأهازيج الحب والهيام ، وانطلقا إلى حيث كان الشيخ ، فلما رأى حامدا تهللت أساريره وقام يعانقه في ترحاب ، فاستشعر حامد غبطة ، كان جده يرحب به كلما عاد ، ولكنه يحس الليلة أن ترحيب جده فيه شيء من الإكبار .

ومد يده إلى عمار فراح عمار يشد عليها ، ويقول له وهو يفسح له مكانا إلى جواره :

— اجلس ، فأني في شوق إلى الأخبار .

وجلس حامد ، وراح يقص قصة اعتقال عرابي وعبد العال وعلى فهمي ، وكان كلما رأى العيون متعلقة به ينتشى وتفتتح أمامه مغاليق الأحاديث فيتدفق في طلاقة حتى كاد ينكر نفسه ، وراح يقول :

— ... وأغلقوا عليهم باب السجن ، وأمر ناظر الجهادية الباخرة النيلية الراسية عند قصر النيل أن تستعد ، كان ناظر الجهادية يريد أن يحمل الضباط الثلاثة فيها ثم يلقهم في النيل ليتخلص منهم ، ولكن فرقة الحرس كانت في هذه اللحظة تحطم أبواب القصر ، وكان الجنود المصريون يزحفون ليخرجوا عرابي وعبد العال وعلى فهمي ، فلما رأى الضباط الجراكسة الجنود المصريين فرعوا وهربوا من النواذير فمنهم من جرح ومنهم من كسر ، وقفز ناظر الجهادية من الشباك وأخذ يجري وهو مرعوب حتى وصل إلى سراي عابدين .



وفتح الباب وندت من سعدية صبيحة فرح

فقال عمار في غيظ :

— عابدين .. يا خسارة . ليته وقع في أيدي الجنود ، والله لو كان وقع في يدي ما كنت أتركه قبل أن أجلده وأجرعه من الكأس المرة التي أرغمونا على شربها سنين .

فقال له الشيخ مداعبا .

— نحمد الله أنك لم تكن هناك .

فقال عمار في ثورة :

كل ما أرجوه أن تتمكن من أن نسومهم العذاب يوما ، وأن نذيقهم الظلم كما ظلمونا .

فقال الشيخ إبراهيم في هدوء :

— إننا لا نريد الظلم لأحد فإننا لا نحب الظلم ، وكل ما نطلبه أن لا يظلمنا أحد .

فقال عمار في مرارة :

— إنك لا تستطيع أن تعيش في هذه الدنيا إلا ظلما أو مظلوما ، وإنني بعد أن ذقت طعم الظلم أفضل أن أكون ظلما من أن أكون مظلوما .

وقالت خديجة في استسلام :

— يا بخت من بات مغلوبا ولا بات غالبا .

فقالت سعدية لخالتها تداعبها :

— يا بختك .

وابتمسوا جميعا ، حتى خديجة التمت عيناها غبطة ورتت إلى عمار كأنما تقول له : أسمع ؟ .

واستأنف حامد حديثه قال :

— وذهب عرابى وعبد العال وعلى فهمى إلى ثكنات الحرس ، وكان من رأى الرجل الأمريكى أن يطلب الجيش ليحاصروا الحرس الخديوى لإرغامه على تسليم عرابى ، ووافق الخديوى والجراكسة على هذه الفكرة وطلبوا الآلاى السودانى وأمروه بالحضور فورا ، ولكنهم علموا أن البكباشى خضر خضر ، وهو من أنصار عرابى ، قد خرج بالجنود بعد أن قبض على الضباط الكبار الذين قد يعارضون أوامرهم ، وسار بطريق البحر لإخراج عرابى وصاحبيه من السجن .

وخاف الخديوى ، فأرسل إلى البكباشى خضر خضر من يخبره أن الضباط الثلاثة قد خرجوا من السجن ، وأن الخديو يطلب منه أن يعود إلى طرة ، ولكن البكباشى قال لهم :

— إني لا أعود إلا بعد أن أراهم بعينى .

فقالوا له :

— إذا سمعت ورجعت فالخديو سيعطيك المال والنياشين ، أما إذا أبيت إطاعة أوامره فقد يكلفك ذلك رأسك .

ولكن البكباشى رفض أن يصغى إليهم ، وسار حتى وصل إلى ساحة عابدين واطمأن على أصحابه .

واستمر حامد يتحدث والشيخ يعيره سمعه ، وسعدية تصغى إليه منتشية ، وعمار يعلق على ما يقول فى ثورة ، وخديجة معجبة بكل ما يقول زوجها

وما يفعل ، حتى إذا ما انقضى من الليل ثلثه قاموا جميعا ليسلموا جنوبهم للرقاد اللذيذ .

وأصبح الصباح فخرج الفلاحون إلى الحقول ، وبقي عمار وحامد في الدار ، وأحس حامد حنانا إلى سعدية وإلى الساقية وإلى شجرة التوت ، فالتفت إلى عمار وقال له :

— ألا تأتى معى ؟

— إلى أين ؟

— إلى الحقل .

فلوى عمار شفته السفلى وبان في وجهه الامتعاض فقال له حامد وهو يجذبه من يده :

— تعال .

وانطلقا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى إذا وصلا إلى الحقل وقفا تحت شجرة التوت ، وراح حامد يدير عينيه في المكان فيستشعر حنانا ، كانت روحه تهفو إلى الشجر ، وإلى الساقية ، وإلى الأرض الطيبة ، فكل شئء حوله حبيب إلى نفسه ، وتحركت مشاعره حتى كادت الدموع تطفر من مقلتيه . وجلس عمار على الأرض ، ونظر إلى الشيخ وإلى سعدية وإلى زوجه وقد غرقوا في العمل ، ثم نظر إلى حامد وقال له :

— ألا تساعدهم ؟

فأفاق حامد من أحلامه واتسعت عيناه دهشا ، وقال له :

— ولماذا لا تساعدهم أنت ؟

وتغير وجه عمار ولكنه لم يغضب ، بل اكتسى بموجة من الأسى ، ثم نهض

وقال :

— يا طالما سألت نفسي هذا السؤال : لماذا لا أمد إلى هؤلاء الناس يدي ؟
إننى ما جئت إليهم إلا لأننى لم أجد أحدا يؤوينى غيرهم ولكننى أحببتهم لما
عاشرتهم ، ورأيت أن من الواجب على أن أساعدهم ولكننى لم أقدر . إننى
كلما رأيت ترعة أو فأسا أو مقطفا أو أرضا منزرعة شعرت بغثيان وبرأسى
يدور ، إنك لا تدري ما تحملته فى الجيش من ذل ومهانة . كانوا يأخذوننا إلى
أراضى الخديو إسماعيل نعمل من شروق الشمس إلى غروبها فى شق الترع ،
أو تمهيد الأرض ، أو جنى ثمارها والشمس ترسل أشعتها الحامية تكاد
تشوى وجوهنا . والسياط تمزق أبداننا لتحثنا على العمل ، فما شتت هذه
الترع إلا بدمائنا ، وقد رويت الأرض بعرقنا ، ورأينا أهوالا ، حتى إننى لم أعد
أطيق إدامة النظر إلى المياه الجارية ، والأشجار الباسقة ، والحقول المثمرة .
أصبحت كل أمانى أن أستلقى على الأرض وأن أغلق عيني حتى لا أرى
ما يذكرنى بالأيام القاسية .

وأطرق عمار ولاذ بالصمت ، وظل حامد يرنو إليه مشدوها لا ينبس
بكلمة ، ودار عمار على عقبيه وانصرف وحامد يتبعه بنظره ، وقد هز حديثه
أوتار قلبه ، ولحنته سعدية فخفت إليه مسرورة ، فلما وجدته ساهما يرسل
بصره خلف عمار قالت له :

— هل أغضبته ؟

فقال حامد فى رقة :

— لم أغضبه ولن أغضبه ، وأرجو ألا تغضبيه لإكرامى لى .

تحركت الغيرة في صدر توفيق لما رأى الناس يرفعون إلى عرابي يشكون إليه ما هم فيه ويرفعون إليه المظالم ، وأصبح في حيرة لا يدرى أين يميل ، كان يشجع الجيش على الثورة في وجه رياض ليتخلص من وزيره الذي يغضه من كل قلبه ، ويتمنى أن يزول من طريقه ، ولكنه يرى نفوذ الجيش يتغلغل في البلاد حتى بات خطرا على عرشه وسلطانه ، فوطن النفس على أن يدس لعرابي وأصحابه ، وعلى أن يكيد لرياض ، لعله ينجح في أن يقضى على غرمائه ، وينجو بملكه الذي أصبح في مهب الأعاصير .

ولم يكن الخديو صاحب شخصية قوية ليبرز في ميدان الكفاح والنضال ، بل كان يميل بطبعه إلى تنفيذ مآربه بالكيد والدس في الظلام ، فراح يجمع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه ، وأخذوا يقلبون وجوه الرأى بينهم ، فاستقر رأيهم على أن يعملوا جاهدين لفض الجنود عن ضباطهم ، حتى إذا ما أصدروا إليهم أمرا عصوه ولجوا في العصيان .

وراح يوسف باشا كمال ناظر دائرة الخديو الخاصة يعمل لإنفاذ إرادة مولاه ، فأخذ يقرب منه صف ضابط من آلاى السودان ، وقد اختاره من الجراكسة الناقمين على حركة الفلاحين ، يدعوه إلى بيته ويبالغ في إكرامه ، ويحرضه على أن يلوى العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمرهم به إذا سيروهم إلى حادثة مثل حادثة قصر النيل ، وقال له :

— عليك أن تقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً ، فإذا صدر الأمر بنقل آلايهم أو غيره من كبار الضباط إلى آلاى آخر فعليهم أن لا يعارضوا فى ذلك ، وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم .

وانطلق الجر كسى وقد أفعم بالفكرة إلى آلايه بطرة ، وراح يفكر فيما يفعله لإنفاذ ما عزم عليه ، فهداه تفكيره إلى أن يكتب عريضة يضمها أن العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم ، وإذا نقل أى واحد منهم إلى أية جهة فلا يعارضون أمرا من الأوامر التى تصدر بذلك ، وأعجبه الفكرة فأخذ ينفذها ، ولا غرو فقد كان جر كسيا أحقق ..

أخذ العريضة وراح يمر بها على العساكر يطلب منهم أن يخطموا عليها ،
قائلا :

— حان أوان إنصافكم ، فحررت هذه العريضة وطلبت فيها زيادة المرتبات لكم ، اختموا .

وأسرع الجنود يخطمون العريضة ، وتقدم حامد ليوقع عليها ، وراح يقرأ ما فيها فاربذ وجهه ، ولمح الجر كسى تغيره فأوجس خيفة ، وخطر له أن يخطفها ويمزقها ، ومد يده لينفذ الفكرة ويتخلص من أثر جريمته ولكن حامدا فطن إلى حركته فأخفاها وراء ظهره ليحميها ، وتأهب ليدفع الجر كسى عنها إذا ما التجأ إلى العنف وحاول أن يأخذها منه عنوة ولكن ذهبت شجاعة الجر كسى شعاعا ، واصفر وجهه وجحظت عيناه واصطكت أسنانه ، وكاد ينهار من الإعياء .

وانطلق حامد يعدو بالعريضة ، ودخل على البكباشى سليم أفندى الزبدي

وحياه ، ثم قال له وهو يقدم إليه العريضة :

— وجدت باشجويشا جر كسيا يجمع أختام الجنود على هذه العريضة .
وتناولها البيوزباشى وراح يقرأها فثارت دماؤه فى عروقه ، وانطلق إلى عبد
العال بك حلمى أمير الآلاى ودفعها إليه ، فلما قرأها أيقن أن حجاب
الطمأنينة الذى يسدل على الجيش يشف عن كامن القلق والاضطراب ،
فالدسائس تحاك ، والخناجر مخفية خلف الظهور وإن كانت الأيدى
تتصافح .

وذهب عبد العال إلى قصر النيل وطلب مقابلة ناظر الجهادية ، فلما دخل
عليه ، قدم إليه العريضة وقال له :

— المكائد تحاك حولنا ، والدسائس تنسج فى كل مكان للبطش بنا ، إننا
نريد أن نعرف منشأ هذا الفساد .

فقال محمود البارودى :

— سأرفع هذه العريضة للخديو وأرى رأيه فيها .

ورفت على الشفاه ابتسامات كانت أبلغ من مقال .

ورفع محمود سامى باشا العريضة إلى الخديو فأظهر استيائه ، وأمر بإجراء
تحقيق لإظهار الذين يعيشون فى الأرض فسادا ! .

وحقق مع الباشجويش فأتضح أنه متزوج من جارية من جوارى
السراى ، وأنه كان يحرض الجنود على التمرد ، وقد أخذ بعضهم إلى منزل
يوسف باشا كمال الذى منح كلا منهم ثمانية جنيهات ، ووعدهم بتزويجهم من
جوارى السراى .

واتضح أن يوسف باشا هو المحرك للفتنة ، فأصدر توفيق أمرا بفصله من

نظارة الدائرة السنية ، وقد حسب أنه بذلك الفصل قد ستر نفسه ونأى بها عن الشبهات ، ولكن الضباط كانوا على يقين من أن هذه الدسائس من وحى الخديو ، وهو المدبر لها والمشرف على إنفاذها ، لذلك راحوا يرقبون ما يفعله في احتراس ، كانوا على ثقة من أنه لن يكف عن الدس لهم ، فإذا كان قد أخفق مرة فسيعاود الكرة مرات .

وترادفت دسائس الخديو ، وطغى رجال حاشيته ، فامتلات نفوس الناس مرارة ، وراحوا يخوضون في الخديو وبطائنه يذكرونهم بالسوء ، ففسدت الصدور ، وأغلقت القلوب على كراهية الحاكم والحكومة .

وذهبت السيدة عائشة إلى القصر وراحت تبخر الخديو وتقرأ الأدعية وكانت تقوم بعملها في فتور ، وقد فطن توفيق إلى صمتها فقال لها :
— ماذا يقول الناس عنى ؟ .

فلججت عائشة في الصمت ولم تنبس بكلمة ، فالتفت إليها الخديو وقال :
— لماذا هذا الصمت ؟ .

— أرجو أن تعفينى .

— لماذا ؟ .

— لأن ما سأقوله لن يسرك .

— قولى .

فصمت السيدة عائشة قليلا ، ثم قضت على تردها وقالت :

— يقول الناس إنك خيبت آمالهم فيك .

فأربد وجه توفيق ، وتدفق الدم حارا في عروقه وضاق صدره ، وقال في

انفعال :

(قلعة الأبطال)

— لماذا ؟ .

— وعدتهم أنك ستشركهم في حكم بلادهم ثم عدت وتنكرت لوعدك ،
وقربت منك بطانة أبيك مع أنك تعلم أنها بطانة سوء ، واستعنت برجال
حاشيتك على حيك دسائسك .

فقال توفيق في ثورة :

— هذا كذب وافتراء .

فقالت السيدة عائشة في هدوء :

— بل هذا هو الحق ، إنك تظهر غير ما تبطن ، لماذا لا تقلع عما أنت فيه ؟
لماذا لا تمد يدك إلى شعبك وتتعاون معه وأنت صافي النفس ؟ لماذا كل هذه
المكائد التي تدبرها في الظلام ؟

وأخذته العزة بالإثم فصاح في وجهها :

— اخرسى .

— كنت أؤثر الصمت ولكنك أبيت إلا أن تسمع مني ما يقول الناس
عنك ، فافتح أذنيك واسمع ، إنهم يكرهونك ، ويرون أنك لست أفضل من
أبيك ، فافتح لهم صدرك يعطوك راضين مفاتيح قلوبهم ، وطهر سريرتك
يمنحوك الثقة ويبادلونك إخلاصا بإخلاص .

وأعماه غضبه فقال في إنفعال :

— والله لن تدخلني على أبدا بعد اليوم ، بل لن تمكثي في بلادى ، اخرجي

منها .

فقالت السيدة عائشة وقد أولته ظهرها :

— ربنا موجود .

ونفاها توفيق إلى جدة ، ولم يكتف بذلك النفى بل أصدر أمره بطرد زوج
ابنتها الذى كان يعمل بالقصر انتقاما منها ، ولم يعده إلى خدمته إلا بعد أن طلق
زوجته . وكانت هذه أول مرة خالف فيها توفيق طبعه وثار فى وجه محدثه ، فما
كان قادرا على أن يقول لا أبدا ، ولكن لا عجب فى ذلك فقد ثار فى وجه
امرأة .

كانت الليالى رمضان ، تكثرت فيها الزيارات ؛ تيسر الاجتماعات وتنتشر الشائعات ، ووجد عرابى فى رمضان فرصة ليكثر من زيارة سلطان باشا وطلبة باشا ومؤيديه من الرجال الكبار ، وبعد أن أقبل محمود سامى من نظارة الجهادية لميله لعرابى وحركته ، ومؤازرته والدفاع عنه كلما فكر الخديو أو الوزارة فى التخلص منه ، وعين داود باشا يكن ناظرا للجهادية ، الذى أصدر أوامره المشددة إلى الآلايات يلزم بها أمراءها وضباطها بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية ، ويحظر بها على جمعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع فى المنازل والتردد على المحافل ، وكان يذهب بنفسه إلى الثكنات ليلا ونهارا ليرقب تنفيذ تلك الأوامر .

راح عرابى يحدث سلطان باشا ويدعوه إلى مؤازرته فى تشكيل مجلس النواب ، فأخذ سلطان باشا يفكر ، فرأى فيما يدعوه إليه عرابى فرصة فى أن تعلق كلمته فى البلاد على كلمة رياض باشا ، وأنه قد أتاحت له الظروف ليعيد نفوذه الشخصى فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، وفطن إلى أن عرابى لا بد أن يصل إلى ما يريد يوما ، فمن الحزم أن يتفق معه فى البداية ليكون له النصيب الأوفى فى النهاية ، فمد يده إليه ووثقه على التعاون فى طلب مجلس الشورى ، وقال له :-

— سادعو أعيان الوجه القبلى والبحرى إلى المطالبة بمجلس النواب ،

وأحنتهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب إلى رياض باشا ويلج عليه في الطلب أن يستصدر من الخديو أمرا باستدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في حقوقه ، حتى يكون كمجالس النيابات في أوروبا ، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه حكومتها .

وأقبل الشيخ محمد عبده واستأذن في الدخول ، فلما سمع عراي وبعض رفقائه اسمه انسحبوا من محل الاستقبال إلى محل آخر ، فقد كانوا يعرفون أن الشيخ من مناوئ حركتهم وأنه لا يؤيدهم ، وإن كان ثاني اثنين فتحا عيون الناس على حقوقهم ، وبغضاهم في الاستبداد ، وعلماهم مزايا أن يكون الحكم شورى ، فقد كان له رأى وحده .

ومرت الأيام ولم يتمكن سلطان ياشا من تأليف ذلك الوفد الذى وعد به عراي ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عراي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحرى والقبلى وعلماءه على تعضيد طلبه متى أزاح رياض باشا من طريقهم . ولم ينتظر سلطان ما تتمخض عنه الحوادث بل بارح مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا ، فإذا ما انتصر عراي على أعدائه شارك سلطان في جنى ثمار النصر ، أما إذا أخفق كان في مأمنه بعيدا عن الانتقام والبطش .

وفى اليوم الثالث من العيد مر الشيخ محمد عبده ببيت طلبة باشا فسمع جلبة ، ورأى بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخل للزيارة ، فوجد عراي وجمعا غفيرا من الضباط وأحد أساتذة المدرسة الحربية . فجلس ، واستمر الحديث في وجهته ، قال عراي :

— لا بد من تقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على

الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية ، فقد آن الأوان للتخلص من الاستبداد .

فقال الشيخ محمد عبده :

— علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بضع سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، ليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشيء قبل بلوغ سن الرشد ، يفسد المال ويقضى إلى الهلكة .

فقال عرايى فى حماسة :

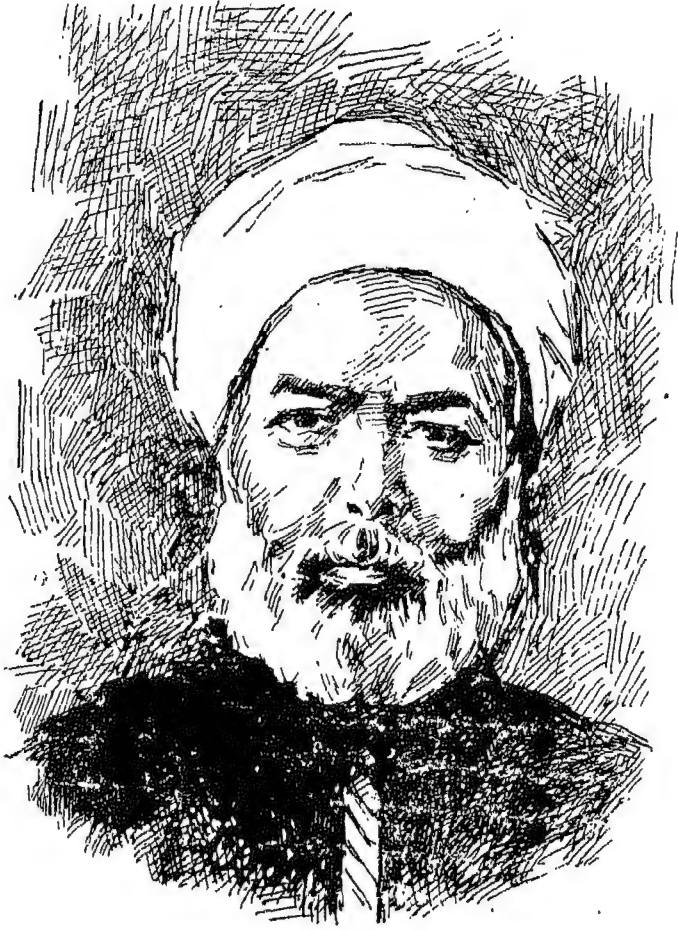
— البلاد مستعدة لتشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، والله لا أدرى هل عقلت مصر ؟ إن فيها العلماء والنهلاء والحكماء .

فقال الشيخ محمد عبده فى هدوء :

— لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة غير مشروع ، ولو تم لك ما تسعى إليه ونالت البلاد مجلس شورى ، لكان بناء على أناس غير شرعى ، فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة .

فتبسم عرايى ابتسامة الساخط وقال :

— أبذل جهدى فى أن لا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب ، وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد .



علينا أن نهتم بالتربية والتعليم بضع سنين

فقال الشيخ محمد عبده :

— وعلى من تعتمد ؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك ؟.

فهمس عرايى إليه بصوت خافت :

— إن سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين

ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا .

كان أهالى البلاد يؤيدون عرايى ، وأرباب الكلمة فيها معه ، فإذا ما طلب تشكيل مجلس النواب فإنما يضع نفسه ومن معه من الضباط وموضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة ، فإذا ما ثار فى وجه الحكومة فإنما يثور للأمة ، وكل ما تأتى به الأمة فى سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها مشروع ، لا يصادف منكرا ، فراح عرايى يصل ليله بنهاره فى التفكير والتدبير ، ليثور ثورة الأمة .

٣٠

قضيت صلاة العشاء فعاد الشيخ إبراهيم الى الدار ، فألقى حامدا وسعدية وخديجة وعمارا يتسامرون فجلس يصغى إلى ما يقولون ، فإذا بعمار يقص نواذره ، وحامد يقص نواذره ، وحامد يصغى إليه مشرق الوجه ، وسعدية مقبلة عليه لا تضيق به ولا تنبرم ، فقد روضت نفسها على أن لا تبغضه فألفته طيب القلب خفيف الظل ، وإن ظل على عهده به ليس له عمل ظاهر فى البيت إلا أن يتحدث.

وكانت خديجة ترنو إليه في وجد ويتألق في عينها بريق الحب ، فقد أحبته من صميم فؤادها ، ظنت بعد فرار علوان منها أنها ستعيش ما بقى من عمرها تندبه وتتحسر على لياليه المترعة بالنشوة ، فإذا بعمار ينسيها علوان ومن سبقه من أزواجها .

ورفت على شفتى عمار بسمه ، واعتدل في جلسته يتأهب أن يلقي نادرة تذكرها وقال :

— كنت جنديا في الآلاى الثالث ، وكان اليوزباشى الألفى يكلفنى بأعمال قاسية ، وكان يرانى والعرق يتصبب منى وأنا ألتقط نفسى في جهد فلا يرق قلبه لى ويشجعنى بكلمة ، بل كان يقول فى سخرية واستخفاف : فلاح حمار . كان اضطهاده لى يحز فى نفسى حتى إنى فكرت مرة أن أثور فى وجهه . ولكنى تذكرت الكرباج فانكمشت ، وتجرعت إهاناته المرة وأنا صابر كاظم الغيظ . واشتهر أمر هذا الاضطهاد فى الآلاى .

وفى ذات يوم ، جاء إلى بعض صف الضباط وقالوا لى :
— أتحب أن تستريح من اضطهاد حضرة اليوزباشى ، وأن يرضى عنك ؟
فقلت لهم :

— لا أشتهى فى الحياة شيئا أكثر من هذا ، ليته يرضى عنى لا رضى الله عنه .

فقالوا لى :

— ادخل عليه وحيه ، وقل له : « عقلز تورك » .

فقلت لهم :

— ما معنى هذا ؟

فقالوا الى :

— معناه : أنت تركى عظيم .

فقلت لهم مدهوشا :

— ولماذا لا أقول له ذلك بالعربى .

فقالوا فى تحذير :

— إياك أن تقول له شيئا بالعربى ، فهو يكره أن يسمع كلمة عربية ، ولكنك إذا قلت له هذا المدح بالتركى سرت نفسه ورضى عنك وقربك منه ، لأنك تحاول أن تمجد لغته وتتكلم بها .

واستولت على الفكرة ، كنت فى كرب وضيق ، ولم أجد بأسا فى أن أتملقه وإن كنت فى قرارة نفسى أمقته وأحتقره ، فانطلقت إلى مكتبه وأنا أردد فى سرى : عقلز تورك .. عقلز تورك .. حتى لا أنساها ، ودخلت عليه وحييته فى شهامة ، وضربت كعب الحذاء بكعب الحذاء فى قوة ، وقلت له فى صوت متهدج :

— عقلز تورك يا أفندم .

فقفز على كرسيه كأنما قد وخزته إبرة ، واحمر وجهه ، وفى مثل لمح البصر ألقى بما وصلت إليه يده فى وجهى ، وانفجر صائحا :

— فلاح حمار ابن كلب .

وذهلت ، وتسمرت فى مكانى مشدوها لا أدرى ما الذى أحنقه على ، وبقيت فى حيرة من أمرى لأننى لم أعرف علة غضبه ، وأخيرا اتضح لعينى كل شيء لما صذرت الأوامر بجلدى ، لأننى أهنت حضرة اليوزباشى بأن اقتحمت عليه مكتبه وصحت فى وجهه : تركى بلاغ أفندم . غرروا بى ليضحكوا ،

وقد ضحكوا ولكن سرعان ما قطبوا جباههم وندموا على ما فعلوا لما رأوا في
أتلوى من السياط وأتأوه .

وابتسمت سعدية ، فقالت لها خديجة عاتبة :

— أتضحكين ؟! .

فقال الشيخ إبراهيم وهو يهز رأسه :

— شر البلية ما يضحك ..

ثم التفت إلى حامد وقال :

— متى تسافر ؟

— غدا في الفجر ، فقد انتهت إجازة العيد .

وسمع طرق على الباب ، فنهض حامد يفتح فألقى يوسف لدى الباب ،

فقاذه إلى المصطبة ، ثم ذهب إلى جده وقال له :

— يوسف جاء يسأل عنك .

وإذا به دون أن يدري يرنو إلى سعدية ويضيق صدره وتتدفق دماؤه حارة

إلى وجهه ، وفطن إلى ما اعتراه فأطرق برأسه ، وجلس منطويا على نفسه وقد

لاذ بالصمت .

ودخل الشيخ متهلل الوجه ، وصافح يوسف في ترحيب وهو يقول له

مداعبا :

— كيف حال شيخنا الصغير ؟ .

— الحمد لله .

وأطرق قليلا في ارتباك ، ففطن الشيخ إلى أنه يريد أن يقضى إليه بشيء

فقال :

— خيرا ؟!

فقال يوسف فى صوت متهدج وقد صعدت الذماء إلى وجهه :
— عزمت على أتزوج ، ولما كان يشرفنى أن أهاهر كم فقد فكرت أن أرسل
أبى يخطب لى سعدية ، ولكنى عدت وفضلت أن آتى إليك وأطلبها بنفسى .
وأحس الشيخ لأول مرة اضطرابا ، كان ما يقوله يوسف مفاجأة له ،
فصمت قليلا يستجمع شتات أفكاره ، ثم قال فى أناة :
— يسرنى يا بنى أن أزواجك من سعدية ، فغاية أملى أن أراها فى بيت
زوجها قبل أن أموت .

فقال يوسف فى سرور :

— أشكر لك عطفك على .

فقال له الشيخ فى هدوء :

— قلت لك رأى ، ولكن لا بد لنا أن نسمع رأيها فى الأمر .

وقام الشيخ إلى حيث كانت سعدية وخديجة وعمار وحامد جالسين ،
وقال :

— جاء يوسف يخطبك لنفسه يا سعدية ، فما رأيك ؟

وساد الصمت ، ونبتت فى الصدور مشاعر متباينة ، أحس حامد عقارب
الغيرة تلسع صدره ، وشعر لأول مرة أنه غريب ، فلم يقو على أن يعبر عن
إحساساته فأنسل من المكان وراح يصعد فى السلم إلى سطح الدار ليختفى فى
الظلام عن العيون . وشعرت خديجة بنشوة تملأ جوفها ، فحديث الزواج
يدغدغ حواسها ، وأرهفت مشاعر عمار وفتح أذنيه يصغى إلى ما يدور أمام
عينيه ، قال الشيخ يقطع هذا السكون :

— سكوت البنت رضا .

فقالت سعدية فى انفعال :

— لا أريد أن أتزوج .

فقالت خديجة فى دهش :

— شاب مثل يوسف يأتى إليك بنفسه ليخطبك فترفضينه ؟ والله إن أمرك

عجب . لو جاء يطلبنى ما رفضته .

فقال عمار فى غضب :

— ماذا تقولين .

فقالت خديجة وقد سرها غضبه :

— أقصد أنه لو كان جاءنى قبل أن أقابلك ما رفضته .

فقال الشيخ فى ضيق :

— إننا لا نسألك رأيك ، نريد أن نسمع رأى سعدية ، لماذا لا تريدينه ؟ .

فقالت سعدية وقد أسبلت جفونها على عينيها :

— لا أريد أن أتزوج الآن .

وانسل الشيخ إبراهيم من المكان ، وراحت خديجة تؤنب سعدية :

— ما هذا العبط ؟ ترفضين رجلاً أتى بنفسه يطلبك ؟! أنت مجنونة والله لن

أصدق أن عقلك سليم .

وقامت سعدية وهرعت إلى السلم وراحت تصعد فيه ، وصوت مكبوت

يدوى فى جوفها :

« حامد .. حامد » ولم تقو على كبج جماح عواطفها فانهمرت دموعها

تغسل وجهها .

وعاد الشيخ وقد عبرت وجهه سحابة من الأسى ، فقالت له خديجة :

— ماذا قلت له ؟

فقال الشيخ وهو يتلفت في المكان :

— قلت له من الأفضل أن يترى حتى يتم تعليمه .. أين سعدية ؟ .. أين

حامد ؟.

فقال عمار وهو يبتسم :

— فوق السطح يكيان .

فأشرق وجه الشيخ وغمغم في راحة :

— لم أكن أعلم .

وسار صوب السلم ونادى :

— حامد .. حامد ..

وهبط حامد وذهب إلى جده ولم يرفع عينيه إلى وجهه ، فقال الشيخ وهو

يضمه إليه :

— لماذا لم تقل لى ؟ لماذا ؟.

فقال حامد في انفعال :

— والله لن أضع يدي في يد يوسف بعد اليوم .

فقال الشيخ :

— إنه لم يأت جرما ، قد أكرمنا لما جاء يخطب ابنتنا .

فقال حامد في ثورة :

— كيف يجرو على أن يخطبها وأنا في الدار ؟ لن أغفرها له أبدا .

وأطلقت خديجة زغرودة دوت في المكان ، فأسرعت سعدية هابطة فلما

رآها جدّها قال فى حنان دافق :

— تعالى ..

وتقدّمت على استحياء تتعثّر فى ذيل ثوبها ، فلف ذراعه حولها ولف ذراعه الأخرى حول حامد ، وضمّهما إلى صدره وقد غامت عيناه بالدموع .

٣١

سافر الخديو إلى مصيفه وقد أقلقه ارتفاع ذكر عراى وأصحابه فراح يدبر وهو فى الإسكندرية بعيدا عن عاصمة ملكه ما يقضى به على هذه المنافسة الجديدة التى أطلت بخطمها ، لكأنما لم يكن يكفيه منافسة رياض .

وتلفت حوله فلم يجد قوة يعتمد عليها فى مقاومة الجيش إلا الجيش ، فلو أنه تمكن من أن ييث بين صفوف الجنود الانقسام لسهل عليه أن يضرب بعضهم ببعض ، ولنجا بعرشه من المخاطر التى تكتنفه ، والأهوال التى تحيق به .

وقر رأيه على أن يدنى منه على فهمى أمير حرسه ، وأن يسبغ عليه عطفه ، ويشمله برعايته ، فهو يعتقد أنه أقرب الضباط الثلاثة إليه ، فلو أنه من الفلاحين إلا أن زوجته تركية ، وقد أمضى مدة طويلة فى خدمة القصر ، كل هذا ييسر له أن يطويه تحت جناحه ، وأن يستغله فى تحقيق مآربه .

وراح يدعو على فهمى إلى مجالسه الخاصة ، ويتودد إليه ويمنيه الأمانى ، وبالغ فى رعايته حتى بلغ عراى والضباط الملتفين حوله أن الجناب الخديو

استمال آلاى الحرس وأميره ، وعاهده على أن يكون قوة تقضى على من يخالف الأوامر من بقية الآليات .

وتبلبلت الخواطر ، ونزل القلق بصدور الضباط وباتوا فى حيرة فما كانوا بقادرين على أن يصدقوا أن على فهمى قد انضم إلى المعسكر الآخر ، وما كانوا بقادرين على أن يكذبوا الأنباء الوافدة المتلاحقة فى إصرار ، فرأوا أن يرقبوا ما تأتى به الأيام فى حذر واحتراس .

وظفق توفيق يعد العدة لمغالبة من يستعصى عليه من جنوده ، فأرسل إلى أمير الآلاى الخامس ، الذى كان مقيما « بباب شرق » بالإسكندرية ، وفتح له قلبه وأبدى له حبه ، وأخذ يغريه على أن يكون له عضدا إذا ما ثار عليه جنده ، فسر أمير الآلاى الخامس أن يكون مقربا من الخديوى ، وعاهده على أن يكون له طوع بنانه ، والآلة المنفذة لرغباته ، ولو كان فى ذلك تمكين للظلم ، وبسط لسلطان الفساد والاستبداد .

وعاد توفيق إلى عاصمة ملكه وقد دبر ما دبر ، وقد عزم على أن ينفذ مؤامره التى أمضى فصل الصيف فى نسج خيوطها فى صبر وأناة ، لعل السحب التى تتلبد فوق عرشه تنقشع ، ولعل القلق النازل بصدره يتبدد ، ولعل شمس صفوه تشرق بعد طول احتجاب .

وأصدر داود باشا يكن صهر الخديو وناظر الجهادية أمرا بنقل الآلاى الثالث المقيم بقلعة المعز بالقاهرة ، إلى الإسكندرية ، وأن يؤتى بالآلاى الخامس إلى مصر بدلا عنه ليكون فى القاهرة آليات تحت طاعة الخديوى ينفذان أمره ، إذا ما تحرك الخطر وهبت الأنواء .

اضطرب ضباط الآلاى الثالث وأوجسوا خيفة ، وفطنوا إلى أن الحكومة

تريد أن تنتقم منهم ، وراحوا يتهامسون أن في النية إغراقهم في كوبرى كفر الزيات ، ووفر في أذهانهم صحة كل ما توسوس به المخاوف فقد كانوا جميعا يذكرون كيف أغرق الأمير حليم والأمير أحمد باشا ابن إبراهيم باشا في عهد سعيد ، في كوبرى كفر الزيات !.

وأسرع ضابطان من الآلاى الثالث إلى عراى وبثاه مخاوفهما فقطن إلى ما يدبر لهم في الخفاء ، فأمر الرسولين أن يناديا في ضباط آلاى القلعة بعدم التسليم ، وبالإقامة في مواقعهم ، وأن يمسكوا من يأتى إليهم .

واجتمع عراى والضباط الملتفون حوله وراحوا يتذكرون في الموقف فوجدوا أن الحكومة تماطلهم في تنفيذ ما طلبوا ، فما ألف مجلس النواب ، ولا صدق على القوانين العسكرية ، ولا هدأت الدسائس التى كانت تنسج للإيقاع بهم ، فقر رأيهم على القيام بمظاهرة عسكرية تطالب بحقوق الشعب الذى أنابهم عنه ، فقد بعث العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان إلى عراى التوكيلات ليكون نائبا عنهم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد ، كانوا متعطشين إلى حياة الحرية ، فوجدوا فيه خير من يخلصهم من الظلم والطغيان .

وراحت الإشارات العسكرية تتبادل بين الآلايات ، كان عراى يأمرهم أن يتأهبوا للذهاب إلى ميدان عابدين في الساعة التاسعة لعرض طلباتهم على الخديوى . وأرسل إلى قناصل الدول يؤكد لهم أن الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة ، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأعراضهم .

وبلغ ناظر الجهادية كتاب عراى الذى أبلغه فيه أن جميع الآلايات ستوجه إلى ميدان عابدين لعرض مطالب تتعلق بإصلاح وضمان مستقبلها ، ففرع

(قلعة الأبطال)

وخف إلى توفيق يبلغه رسالة عرابي ، فانزعج الخديو ، وأرسل في استدعاء رياض باشا وخيري باشا وستون باشا الأمريكي ، وراحوا يقلبون وجوه الرأي ، فأجمعوا على أن خير رأى أن يذهب الخديو ووزيره إلى الجند ، ولم يكن أمام الخديو فسحة من الوقت ، فانطلق مع رياض إلى ثكنات عابدين ، وجمع الضباط وقال لهم :

— أنتم أبناءى وحرسى الخاص ، فلا تقتدوا بأعمال الآلايات الأخرى .
فصاحوا جميعا :

— نحن جميعا فداء لولى نعمتنا .

فاستدعى توفيق على بك فهمى وقال له :

— وزع العساكر داخل السراى ، وأقمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها .

وانطلق الخديو ووزيره إلى القلعة ، وراح على فهمى يوزع الجنود فى الغرف العليا ، بحيث يشرفون على الميدان ويطلقون النيران على المتظاهرين وهم فى مأمن .

وبلغ الخديو القلعة والآلاى يتأهب للسير ، فطلب الضباط وقال لهم :
— ما الذى حملكم على مخالفة الأمر الصادر لكم ؟ لقد صدرت الأوامر بأن لا تغادروا أماكنكم .

— إننا لا نخالف أمرا .

فالتفت إلى أمير الآلاى وقال له :

— لماذا امتنعتم عن تسليم الخافر ؟

فقال أمير الآلاى فى اضطراب :

— لم نفعل . إن فودة بك حسن هو الذى أغرى الضباط بالمخالفة ، ومنعهم من التسليم .

وكان فودة بك يقف بالقرب من رياض باشا ، فجذبه من طوقه وأمر بإلقاء القبض عليه وقال له :

— مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع تنفيذها ؟ .

وأمر اليوزباشى محمد أفندى السيد البروجيه بضرب نوبة « سونكى ديك » ، فأسرعت العساكر إلى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخدو و رئيس النظار وصاحوا :

— أطلق البكباشى .. أطلق البكباشى .

فالتفت الخديو إلى رياض باشا وقال له :

— أطلقه ..

ووجد توفيق أن الشدة لن تجدى فتىلا ، فرأى أن يستعمل اللين فقال لهم :
— أأست خديويكم ؟ أأست ولى أمركم ؟ هل تأخر لأحد منكم راتب ؟
أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه فى ملبس ؟ فلماذا جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامرى ؟ .

فقالوا له :

— لأن الغاية من الأمر بسفرنا هو إغراقنا فى البحر عند مرورنا فوق كوبرى كفر الزيات .

وأشار رياض على الخديو أن ينطلق إلى العباسية لمقابلة عرابى فى ثكناته ومخاطبته وتحذيره من قيادة مظاهراته ، فاتجهت عربات الخديوى والقواد الجراكسة صوب العباسية ، فلما بلغوها لم يجدوا بها أحدا ، فقد خرج عرابى

بقواته يجد السير في الحسينية ، ليحاصر عابدين ويرغم حكام مصر المستبدين أن يستجيبوا مرغمين لطلبات الشعب العادلة .

وسأل الخديو في لطفة :

— أين عراي ؟ .

— ذهب بجنده إلى عابدين .

— والمدفعية ؟ .

— ذهبت معه .

وعلا وجوه السادة غيرة ، وانطلقوا مهطعين لعلهم يقدرّون على إعادة الموقف إلى أيديهم بعد أن أفلت منهم .

وجاء آلاى السوارى تحت قيادة أحمد عبد الغفار وانتشر في الميدان ووصل عراي يقود آلايه ، ومعه آلاى المدفعية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر ، وهو ممتط جواده ، شاهر سيفه ، يحيط به عشرة من ضباطه شاهرى السيوف كحرس له .

وهرع بعض الضباط إليه وقالوا له :

— قد أدخل على فهمى عساكره في السراى للدفاع عنها إذا دعت الحال ،

قد ادخر كمية وافرة مما يحتاج إليه لذلك .

قطب عراي جبينه ولاح في وجهه الغضب ، وقال :

— على به .

وجاء على فهمى إلى الميدان ، فصاح به عراي :

— أنت الذى تحمى القصر من إخوانك ؟ هذه خيانة .

فقال على فهمى معتذرا :

— ما فعلت إلا مداراة منى للخديو ، فالسياسة خدعة .
ثم أمر بالنداء فى الآلاى بالنزول ، فنزلت العساكر جميعا ، واصطففت فى
الساحة مع بقية الجنود .

واسرعت الجماهير تقف خلف الجند ، فقد جاعوا فرحين يؤيدون حركة
الجيش ويشاهدون جهاد أبنائهم لانتزاع حقوقهم من بين براثن السلطة
الطاغية ، وبلغ الخديو ومن معه ساحة عابدين فوجدوها غاصة بالعساكر من
كل فريق ، المدفعية والفرسان أمام الباب الغربى ، وعراى وجنوده أمام باب
القصر الكبير ، فدخلوا من الباب الشرقى .

وخف القناصل ومستشارو الحكومة ونظارها إلى السراى ، وخلا الخديو
بالقناصل يستمد منهم الرأى ، فقال له كلفن المراقب المالى البريطانى :
— استدعه وحادثه ثم اضربه بالرصاص بيدك ، تقتل هذه الفتنة .

وقال كوكسن القنصل البريطانى بالإسكندرية ، القائم بأعمال السير
ماليت قنصل إنجلترا الغائب فى إجازة :
— ليس هناك حل إلا عزل رياض باشا .

وأشرف توفيق على الجند وقد التف حوله المستر كوكسن وقناصل
الدول ، وأمر بإحضار عراى ، فذهب إليه راكبا جواده سالا سيفه ، يحيط
به ضباط السوارى ، فقال له توفيق :

— ترجل ..

فنزل عن جواده وسيفه مشهور ، فقال له :

— اغمد سيفك .

ففعل ، فقال توفيق :

— أبعد الضباط عنك .

وخشى الضباط الخيانة ، فوقف بعضهم بين الخديو وبين القصر ليحولوا بينه وبين الفرار إذا ما لاحت بادرة خيانة ، وراح توفيق يقول له :

— ألم أك سيدك ومولاك ؟ ألسنت أنا الذى رقيتك إلى رتبة أمير آلاى ؟ .

— نعم .

— لم حضرت بالجند إلى هنا ؟ .

— جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات

عادلة .

— وما هى هذه الطلبات ؟

— هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس النواب ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى فرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

— كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

فتار الدم فى عروق عرابى وقال فى انفعال :

— لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا إله

إلا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

فقال المستر كوكسن للخديو :

— أرى أن تعودوا إلى القصر فأنى أخشى عليك سوءا .

وعاد الخديو ومرافقوه إلى القصر ، ثم جاء المستر كوكسن والمستر كلفن

إلى عرابى وراحا يجادلانه فى مطالبه ، قال كوكسن :

— إن عزل الوزارة من خصائص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة لا الجند ، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة ، وليس في الأثم من يريد لها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه .

فقال عرايى :

— يا حضرة القنصل ، إن ما يتعلق بالأهالى من هذه المطالب لم أنهض إليه إلا بالنيابة عنهم ، فقد أقامونى نائبا عنهم فى طلبه وتنفيذه بوساطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وإخوانهم ، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التى أبديتها .

قال كوكسن فى تهديد :

— تصرح بأنك تريد الوصول إلى ما تطلب بالقوة ، وهذه هى المهمجية التى تجر الخطر إلى بلادك ، وربما تفضى إلى ضياعها .

فقال عرايى :

— وكيف ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى شئون داخليتنا ؟ ولعن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ، ولو أدى ذلك إلى فنائنا عن آخرنا .

— وأين تلك القوة التى تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ .

— أستطيع أن أحشد فى زمن قصير مليوناً من العساكر كلهم يسمعون قولى ويتبعون إشارتى ، فإن كانت دولة إنجلترا هى التى تستعد لخصامنا ، فلتكن على حذر من ثورة عامة فى الهند تقضى على حياتها فيه .

— وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك ؟

— كلمة واحدة أقولها .

— ما هي ؟ .

— أقولها عند اليأس والقنوط .

وانقطعت الخباير ، وساد القلق نفوس المجتمعين في السراى يتباحثون في الأمر ، وكلما تصرم الوقت استولى الضعف على الوزراء والقناصل والخديو ، ثم خرج كوكسن إلى عراى وقال له :

— وافق الخديو على طلباتكم ، وستنفذ بالتدرج ، وهو يرغب في تعيين حيدر باشا بدلا من رياض .

فلم يوافق عراى ، فحيدر باشا صهر الخديو وابن عمه ، فقال له كوكسن :

— فمن تريد أن يخلف رياض باشا ؟ .

— شريف باشا ، فهو من أنصار إنشاء مجلس النواب .

ولف الليل الكون في عباءته السوداء ، وأهازيج النصر تصدح في قلوب الشعب ، وانسل الخديو إلى قصر الإسماعيلية ، وبعث إلى عراى فذهب إليه ، ودخل عليه وقال :

— أشكر لولى النعم موافقته على مطالبنا .

كان الخديو يحس قهرا ويشعر بطعم الصاب في فمه ، ولكنه لم يفارقه طبعه فقال في تخاذل :

— أقسم بالله أننى مرتاح لما فعلت ، وأننى وافقت على تلك الطلبات بنية صافية .

— نشكر لمولانا صادق شعوره ، أدامه الله لنا ذخرا وملاذا .

فقال له توفيق قبل أن ينصرف :

— اذهب الآن واجل عن عابدين .

وصمت قليلا ثم قال :

— أجل عن عابدين ، ولا ترافق الجنود موسيقاها في الشوارع .

وخرج عرابي يأمر جنوده بالعودة إلى ثكناتهم ، وكان الفرع يهر الناس

هزا ، فقد كانوا يتعانقون في الطرقات فرحا على غير تعارف ، ويتهيجون

بالعهد الجديد الذي أشرق عليهم بعد ليل مدلم طويل .

٣٢

راح الطلبة يتدفقون على الأزهر من كل فج ، فغصت بهم طرق الحسين

وخان الخليلي والجمالية والصناديق والدراسة ، وطفقوا يتحدثون وقد لاحت

في وجوههم الحماسة ، فقد سرت في صدورهم آمال العهد الجديد .

وانطلق يوسف وبعض رفاقه في طريق النحاسين الضيق ، تحف به المباني

العربية بشرفاتها ، والمساجد الشاخنة بمآذنها العالية ، وطفقوا يتكلمون في حرية

دون أن يتلفتوا أو يهمسوا بالحديث ، فما عادوا يخشون دس الجواسيس

أو بطش البوليس .

قال قائل منهم :

— هل يفى الخديو بوعده ؟ لقد وعد بالدستور فهل ينزل حقيقة عن

السلطة لوزراء مسئولين أمام المجلس ؟.

فقال آخر :

— لا أظن ، فلن تخرج المسألة عن دعوة جماعة من الأعيان يكون لهم رأى استشارى .

فقال يوسف فى حماسة :

— أظن سيفى بوعده هذه المرة ، سيمنحنا الدستور مرغما .

— القنصل الإنجليزى يغريه أن يحنث بوعده .

— لن يستطيع التkovص ما لم يجد تأييدا من أكثر من جهة .

— إن أكثر من جهة تغريه بالحنث بوعده ، لقد قال القنصل الإنجليزى إن

السلطان لا يوافق على منح الشعب دستورا حقيقيا .

— من أدرانا أن السلطان قال ذلك ؟

— هذا حق ، فلا غرابة فيه ، فالسلطان عبد الحميد من ألد أعداء

الدساتير .

فقال يوسف فى صوت عال :

— إننى أعجب لماذا تتمسك بهذا السلطان ؟ .

فقال له أحدهم :

— لأنه خليفة المسلمين .

فقال يوسف :

— ولماذا يكون خليفة المسلمين تركيا ؟ . إننى أريدها خلافة عربية

خالصة .

فقال له أحدهم ليخفض صوته :

— هس .

فقال يوسف فى غضب :

— لماذا أسكت أو أخفض صوتى ؟.

— أألم تسمع ماذا قال عرابى عن السلطان ؟ قال : كلنا أبناء السلطان ، ويجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل ، وكما أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسب ما يهوى ، ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها ، كذلك لكل شعب من الشعوب الإسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يجب ويهوى ، وقد كسبت مصر استقلالها بالقرامانات وسنبذل كل جهدنا فى المحافظة على ذلك الاستقلال ، ولكننا نخطئ إذا طلبنا أكثر من ذلك ، ولا يبعد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة .

فقال يوسف فى ضيق :

— أليس من حقى أن أبدى رأى ولو خالف رأى عرابى ؟!

فصمتوا ، كانوا حديثى عهد بالحرية وإن كانت نار الثورة فى صدورهم تتأجج ، فقال أحدهم ليغير مجرى الحديث :

— إننى أتطلع لذلك اليوم الذى نتخلص فيه من المراقبة الأوربية الظالمة كما نتخلصنا من ظلم الحكومة ، لماذا تعفى الأوروبيين من الضرائب وتلقى العبء كله على الوطنيين ؟.

— لأنها أوروبية .

فقال يوسف :

— ولأننا نطاطىء رعوسنا للأجانب ، نقاسى شظف العيش ثم لا نثور للتسعة آلاف من الجنهات التى تدفع لفرقة الأوبرا الأجنبية .

ولاح الجامع الأزهر لعيونهم ، فقال يوسف :

— لا بد من أن نتخلص من الشيخ العباسي .

فقال أحدهم :

— إنه من شيوخ الجامع الصالحين .

— إنني لا أثق في أن يفتي هذا الشيخ فتوى في مصلحة النظام الدستوري .

— هذا ما يذيعه الشافعيون والمالكيون لأن الشيخ حنفي .

فقال يوسف في تأكيد :

— إنني لا أثق في أن يفتي في مصلحة الدستور ، فإذا لم يفت وجرى في

ذلك على رغبة الخديو الذي عينه ، استطاع الخديو أن يجد عذرا للحنث بوعده .

— اليوم تظهر نتيجة انتخاب شيخ الأزهر ، وسرى لمن تكون الغلبة .

وارتفعت الأصوات واختلطت :

— للشيخ عlish .. للشيخ الأمباني .

وقال صوت خافت :

— للشيخ العباسي .

وارتفعت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وقال أحدهم :

— يكفيننا فخرا أننا عدنا إلى طريق تعيين شيخ الجامع بالانتخاب ، بعد أن

كان يعين من المقربين إلى الخديو الذين يضعون الفتاوى والدين في خدمة

مآرب أصحاب النفوذ ، ولو كانوا من المردة والشياطين .

ودارت الانتخابات ، ونال الشيخ عlish أغلبية ساحقة ، ولكنه لم يعين

شيخا للأزهر بل عين الشيخ الامباني ، فقد كان توفيق يخشى الشيخ عlish

ويهابه .

كان الناس مغتبطين بما وصلوا إليه ، ألف شريف باشا الوزارة واستصدر أمرا بعقد مجلس شورى النواب ، ووعد بأن يقدم لهذا المجلس مشروع «لائحة أناسية» لإنشاء مجلس نواب ذى سلطة ، وشعر الجميع بأنهم مقبلون على عهد كله حرية وثقة واطمئنان .

والتف الشعب حول عراى ، حتى الذين كانوا يناوئون حركته اعترفوا به زعيما لهم ، وهرع الصحفيون الأجانب إليه يصغون إلى ما يحدثهم به . فكان يقول لهم فى تواضع جم :

— أنا ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش بى ، ولكن الجيش نفسه هو الذى مثل الأمة وهو حاميا ومرشدا حتى تستغنى عن إرشاده ، إن الجيش هو القوة الواقفة الآن بين مصر وحكامها الأتراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم إسماعيل فى أى وقت إذا لاحت لهم فرصة ، ولو أن المراقبة الأوربية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى أجل المراقبة ، وهذا هو الذى يجب علينا أن ننظر فيه ونعنى به .

لقد كسبنا للناس حق التكلم فى مجلس الأعيان ، ونحن نؤيدهم حتى لا يخدعوا أو يزعجوا من ثم بالقوة ، ولسنا نعمل فى هذا لأنفسنا بل لأبنائنا ولأولئك الذين وثقوا بنا ، إننا نحن الجنود نقف اليوم فى مثل موقف ذلك

الأعرابى الذى رد على عمر فى أواخر أيام حكمه ، إذ كان يسأل هل الناس راضون ، فرد ذلك الأعرابى ، لو رأينا يا بن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

إننا نحن المصريين لانحب الدماء ، ولانود أن يسفك شئ منها ، ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ، ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ، ولانبالى بعون الله بقيمة الثمن الذى تقتضيه هذه الحراسة ، أو الذى يجب أن ندفعه فى مقابل حراسة الشعب للذين يحاولون إسكات صوته .

وساد الاتفاق بين جميع الأحزاب المصرية ، وهذا الجيش ، واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدى الجميع ، وأخذ الوزراء يضعون مشروع القانون الأساسى الذى يمنح البلاد حريتها ، ثم اجتمع مجلس النواب للمداولة فى نصوص الدستور ، وتلهف الناس يريدون أن ينتهى النواب من إقراره ، فقال الشيخ محمد عبده :

— لقد لبثنا قرونا فى انتظار حريتنا ، فلا يشق علينا أن ننتظر بضعة أشهر .
وران على مصر هدوء عجيب ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العواصف والأعاصير .

كان إسماعيل فى أوربا يكيد للحكومة المصرية ، كان يحلم بالعودة إلى عرش مصر فكان يدرس الدسائس لعله يحقق ذلك الوهم الخداع ، وكان نوبار باشا والسير رفرز ولسن يعيشان فى باريس يحسان مرارة ما أصابهما فى مصر من إخفاق ، فكانا يعملان فى الليل والنهار على أن يطعنا الحكومة المصرية طعنة نجلاء ، فلما وجدا أن غميتا صار رئيسا للوزراء فى فرنسا ، وجدا الفرصة



والتف الشعب حول عراقي ..

سانخا ليشفيا غليلهما ، فهرعا إليه ينفثان سموهما ويوگران صدره على الحركة المصرية والقائمين بها .

كان غمبتا يهوديا ، فكان متصلا بالمصالح المالية في بورصة باريس ، وكان ذا صلة متينة ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الأموال الذين اشترى بملايئهم سندات الدين المصرى ، فسهل على السير رفرزولسن أن يتصل به ويحادثه في أمر الدين المصرى ، فقد كان ممثلا للبيت اليهودى الكبير .

وما مضت أيام على تولية غمبتا الوزارة واتصال نوبار وولسن به حتى كان يفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء حمل إنجلترا على الاشتراك مع فرنسا في القيام بعمل عنيف ضد الحركة الوطنية في مصر ، وأن يكون ذلك بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية ، وتنظيم مالية مصر . وراحت الرسائل تتبادل بين وزير خارجية إنجلترا وغمبتا ، كان وزير الخارجية يتظاهر بأنه يخشى من التدخل لأن ذلك قد يعجل الثورة ، وغمبتا يقول إن من الخطر أن تسكت الدولتان حتى تفاجئتهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب . ولما كانت المفاوضات التجارية جارية بين الدولتين وكان وزير خارجية إنجلترا يخشى أن تخفق هذه المفاوضات ، فقد وافق على أن تشترك الدولتان في عمل عنيف ضد الحركة الوطنية ، فبيعت حرية مصر ، وفكرة الإصلاح في العالم الإسلامى كله ، وضحت بها حكومة الأحرار الإنجليزية بثمان بخس ، ألا وهو تخفيض الضرائب التى تجبها فرنسا على الصادرات الإنجليزية !

وأرسلت حكومة فرنسا وحكومة إنجلترا مذكرتهما المشتركة إلى القنصل العام ، ليرفعها إلى الخديو .

« حضرة القنصل العام :

كلفناكم غير مرة أن تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وإنجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، فإن الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر ، ولا سيما بعد حدوث الحوادث الأخيرة وأخصها صدور الأمر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب ، مما أوجب المخاطبة بين الدولتين وإعادة النظر فى شئون اتفاقهما المذكور .

وبناء على ذلك نرجوكم أن تبصر حوالا الآن للجناب الخديوى بأن حكومتى فرنسا وإنجلترا تريان وجوب تأييده فى الخديوية ، وفقا للأحكام المقررة فى السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا على اعتبار أنها وحدها تكفل الآن استمرار السلم والسكون ، وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمران فى البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين ، المتفقتين على الاشتراك فى السعى إلى دفع كل ما من شأنه أن يحدث فى مصر ارتباكاً ، أو يخل بنظامها وأحوالها ، سواء أكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من أسباب خارجية أم من أسباب داخلية .

ولا ريب عندنا فى أن هذا التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين بمنع حدوث ما عساه أن يطرأ على حكومة الخديو من الأخطار ، وإن حدث فالحكومتان لا ترددان فى دفعه ، ولا تحجمان عن صده .
(قلعة الأبطال)

وفي أمل الدولتين يستمد الخديو من هذا التصريح الثقة والقوة ، اللتين هو محتاج إليهما لإدارة أمور الشعب المصرى والبلاد المصرية .

ووصلت المذكرة إلى الخديو ، فإذا بذلك الهدوء الذى يسيطر على البلاد يتهتك ، وإذا بالنفوس المطمئنة تقلق ، وإذا بالثورة تتأجج فى الصدور ، فإلجئنا وفرنسا تنحرفان بمجلس شورى النواب وما كان هناك سبب لهذا التحرش المقيت ، وتحديان الشعب المصرى بتحريضهما توفيقا على مقاومة الحركة الوطنية .

وغضب شريف باشا ، وأعد ردا على هذه المذكرة الظالمة يرفض فيه توفيق حماية إنجلترا وفرنسا ، جاء فيه :

« إن اليوم الذى يؤيدنى فيه الدولتان ضد إرادة بلادى هو اليوم الذى تحين فيه الساعة الأخيرة ، ومتى فصل الرأس عن الجسد لم يبق سبيل إلا إلى الموت ، فأنا إما أن أكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا » .

وعلمت حكومة فرنسا بنبأ هذا الرد فسعت عند توفيق وشريف كى يعدلا عنه ويلتزما الصمت ، فأطاعا وسكتا !

وأرادت إنجلترا أن تعرف أثر هذه المذكرة فى نفس عرابى فبعثت إليه أحد أصدقائه الإنجليز ، فانطلق الصديق إلى ثكنة قصر النيل وقابل عرابى فى مكتبه ، وقد أصبح وكيلا لوزارة الجهادية ، فألقى وجهه عابسا ويتألق فى عينيه بريق الغضب ، فقال له الصديق :

— أخبرنى كيف فهمت المذكرة التى أرسلتها لإنجلترا وفرنسا .

فقال له عرابى فى غضب :

— أخبرنى كيف تفهمها أنت ؟

— إن معنى المذكورة — كما تفهمه الحكومة البريطانية — هو أن إنجلترا وفرنسا لن تسمحا بأن يتدخل السلطان فى مصر ، ولن تسمحا للخديو أن يحنث بوعده ويؤذى البرلمان .

فقال له عرابى فى استخفاف :

— من فسرها هذا التفسير ؟

— السير إدوارد ماليت .

— لا شك أن السير إدوارد ماليت يحسبنا أطفالا لا نفهم معنى الكلمات ، هذه لغة تحد وتهديد ، وليس فى هذه الإدارة كاتب يستخدم مثل هذه الألفاظ لغير هذا المعنى .

وصمت عرابى قليلا ثم قال :

— هذا تحد لحريتنا ، وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترا معنى إلا أن إنجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ، دعهم يأتون ، فكل رجل فى مصر وكل طفل سيقاتلهم ، ليس من مبادئنا أن نبدأ بالعدوان ، ولكننا سنعرف كيف نرد الاعتداء .

إن السلطان هو الذى يحافظ على عرش توفيق فليس هو فى حاجة إلى ضمان أجنبى ، ولك أن تخبرنى بما تشاء ولكنى أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت .

وراحت الحوادث تترادف ، قدم شريف باشا إلى مجلس شورى النواب

اللائحة التى ستكون دستور البلاد ، وقد جاء فيها أن لمجلس النواب أن ينظر فى الميزانية ويبحث فيها : وتعتمد بعد إقراره عليها ، وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك إلى ناظر المالية ، واجتمعت لجنة من أعضاء البرلمان لدراسة المشروع ، وراح المراقبون الماليون يلحون على الوزارة فى أن لا تمس سلطتهم فى وضع الميزانية ، وألا يتعرض المجلس الجديد لها يبحث أو اقتراح ، فوافق شريف باشا على ذلك ، وراح يعدل اللائحة بحيث لا يكون للمجلس أى حق فى المسائل المالية !.

واجتمع النواب وقالوا :

— إن المراقبة المالية الأجنبية ليس لها شأن إلا الإشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ، ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الإيراد ، فقد وجب أن تكون الأمة حرة فى التصرف بالنصف الثانى .

وساء ذلك المراقبين الأجبيين ، فكتبوا احتجاجا قدماه إلى الوزارة :
« يظهر أن مجلس شورى النواب يتهاون لأن يطلب حق تقرير الميزانية ولهذا نرى من واجبنا أن نقول إن إعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الإدارات والمصالح التى لم تختص بإيراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لأنه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار إلى يد مجلس النواب .

وكشف الغطاء عن نية إنجلترا وفرنسا ، كانتا تتمسكان بأن تبقى السلطة فى مجلس النظار حتى تبقى خاضعة لسيطرتهم ، فما أيسر الضغط على مجلس النظار ، وما أصعب تأليف قلوب النواب .

وثار النواب وراحوا يردون على ذلك الاحتجاج ، قالوا :
— اننا لا نقبل أن تكون بلادنا متاعا مرهونا في يد الدائنين ، وأن يكون
علينا لإزالة كل شاغل يساور هؤلاء الدائنين أن نقبل الحرمان من الحقوق
الأولية التي تملكها كل أمة متمدينة . إن هناك حكومات ترزح تحت ديونها
أكثر مما ترزح الحكومة المصرية ، بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت
أن تدفع ما عليها ، ولكنها كلها مع ذلك لم تحرم حقها في أن تحكم نفسها
بنفسها ، أما نحن ، ودائنونا لا يجدون محلا للشكوى منا ، فإننا نمنع من أن
ندخل على قوانيننا بالاتفاق مع خديونا إصلاحات يعترف الكل بفائدتها
للحكومات والشعوب .

وقر رأى النواب على أن يختاروا منهم خمسة عشر عضوا من أعضائه
يسيروا إلى شريف باشا ثم إلى الخديو ، للتصديق على المشروع الذى وضعوه
قبل انقضاء النهار .

انطلق النواب إلى وزارة الداخلية ، وقابلوا شريف باشا ، وقدموا له
التعديل الذى أقروه فيما يختص بنظر الميزانية وقالوا له :
— إن تأخير تنفيذ اللائحة جالب للإخفاق ، ولهذا عقدنا النية على ألا نترك
هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها .

فقال لهم شريف باشا وهو يلاطفهم :

— تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم أتعرض لشيء من
امتيازاتكم ، سوى ما تطلبونه من تعديل فيما يختص بنظر الميزانية ، فلذلك لم
أوافق على ما رأيتموه من أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن .

— إن هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه ، فإن مسألتنا لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة .

— لا سبيل إلى ذلك ألبتة .

— إنا نأسف جدا أن يوافق لنا على اللائحة غيرك .

وفهمها شريف ، فظن إلى أنهم سيطلبون من الخديو عزله ، فأطرق ولم ينبس بكلمة ، وخرجوا من عنده وانطلقوا إلى قصر عابدين ، وقابلوا الخديو وقالوا له :

— إنا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية منح الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها ، فنظمت له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقعها ، فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية .

فقال توفيق :

— إذا كانت الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون ؟

— نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأتى التصديق والعمل معنا .

فقال توفيق وفي صوته رنة إنكار :

— وبأى حق تطلبون هذا ؟

— تلك هى إرادة الأمة .

— ننظر فى ذلك غدا .

وانصرف النواب ، وأرسل الخديو فاستدعى شريف باشا والسير ماليت وقنصل فرنسا ، وراحوا يقبلون الأمر ، واستقر رأيهم أخيرا على أن يستقيل شريف باشا وأن يترك الخديو للنواب اختيار الوزارة الجديدة . ولم يستطع

الخدنيو أن يتريث حتى الغد ، بل أرسل إلى الخمسة عشر نائبا يطلب إليهم الحضور ، فلما جاءوا قال لهم :
— لقد استقال شريف باشا فمن تريدون أن يخلفه ؟ .
فقالوا له :

— اختيار الوزراء من حق الخديو .
— تركت لكم هذا الحق ، فمن تختارون ؟ .
— ليس لنا أن نختار .
وأصر ، وأخيرا قالوا :
— أمهلنا إلى الغد .

وفي صبيحة اليوم التالي جاءوا إليه وقالوا :

— إننا نشير بمحمود سامي البارودي رئيسا للوزارة ، وعين عرابي وزيرا للحربية ، وبدأت الافتراءات تنتشر في الخارج ، فأرسلت شركة روتر برقية تقول فيها : إن استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكري . وقصت التيمس قصة طويلة قالت فيها إن سلطان باشا رئيس مجلس النواب قد أذعن لرأى النواب تحت تأثير التهديد الشخصي ، وأن عرابي قد استل سيفه أمامه ، وهدده بتتيم أطفاله .

وصدق الأجانب هذه المفتريات على الرغم من أن سلطان لم يكن له أبناء ! .

كان رد النواب قويا على مذكرة الدولتين ، فقد أعلنت إنجلترا وفرنسا فيها أنهما تحتفظان بالنظام الحالي ضد الجميع ، فأجاب المجلس على ذلك أن غير هذا النظام تغييرا جوهريا ، وبذلك وضعت إنجلترا وفرنسا نفسيهما في مأزق ، فصارت الضرورة تقضى عليهما بأن تتدخلتا أو تعدلا سياستهما .

راحت الشمس تطأطأ راسها بعد أن شمخت في كبرياء ، وتلصق
خدها بالأرض تواضعا بعد أن سعرت وارتفعت إلى كبد السماء ، لكأنما
كانت تصيح بالمتكبرين أن بعد العلا الهبوط ، وتهيب بالغافلين أن بعد
السطوع الأفول .

وهب النسيم رخاء يعابث أوراق الشجر ويداعب أعواد الخضر النابتة
في الحقول ، وانساب يوسف في الطريق الذى مهدته الأقدام ، وهو غافل
عما حوله من جمال ، كان شارد اللب مشغولا بما فى نفسه من رؤى
وخيالات .

وبلغ الجسر ، فراح يجتازه وهو يتلفت ، كان يرجو أن يقابل سعدية
فى أوتها فيحدثها ويثها ما فى نفسه من آلام وآمال ، فما كان يطيق أن
يذهب دون أن يفتح لها قلبه ويعلنها بما يكنه لها فؤاده من حب وهيام .
انه ودع أهله ، ولكنه ما جاء إلى القرية إلا ليراها ويناجيها قبل أن ينطلق
إلى حياته الجديدة التى لا يدري ماذا تخبىء له فيها الأيام .

وانساب فى طريقه ، حتى إذا ما لاحت له شجرة الجميز والساقية
وحقل الشيخ المتواضع ، خفق قلبه وسرى فى جوفه قلق وأخذ يدير عينيه
فى المكان ، فلما لمحها اشتد وجيب فؤاده ، وتفجرت فى جوفه إحساسات
رقيقة ، وهفت روحه إليها ، فانطلق صوبها كالماخوذ وقد أرهفت

حواسه ، وتركزت فيها كل آماله .

رأته وهو قادم إليها وقد رفت على شفثيه بسمة ، وتلاقت عيناه بعينيها فاضطربت وتضرجت وجنتهاها بحمرة خفيفة زادتها جمالا ، وتلفتت قلقة ، ثم راحت تجمع شتات نفسها وتتأهب للقاءه ، فما وقعت عليه عيناها بعد أن رده يوم جاء يخطبها .

ومس صوته العذب أذنيها وهو يقول لها :

— مساء الخير يا سعدية .

فارتجفت ، وقالت في صوت ينم عن القلق :

— مساء النور .

وساد الصمت بينهما وإن كانت المشاعر تمور في الصدور ، وإن كانت العيون تتحدث والقلوب تحقق بين الجوانح وأسبلت سعدية جفניה وقالت في ارتباك :

— أتريد أن ترى جدى إنه هناك .

فقال يوسف في صوت ينم عما يكابد من وجد :

— ما جئت إلا لأراك أنت .

وأطرق قليلا ثم قال :

— إننا يا سعدية قد لا نتقابل بعد اليوم . جئت أقول لك إننى أحببتك من أول يوم وقعت فيه عيناى عليك ، أحسست أن روحي تهفو إلى روحك ، وأن قلبى يرقص طربا كلما دنوت منك ، وأنتك لى كل شيء ، فتقدمت أخطبك ولكن ..

(قلعة الأبطال)

وبدا في وجهه الأسى حتى أن سعدية أشفقت عليه . واستأنف حديثه
قال :

— يا طالما أمضيت الليالي أفكر فيك ! .

وراحت سعدية ترنو إليه في حيرة ، احتقن الدم في وجهها وعقد لسانها فلم
تنبس بكلمة ، واستمر يثبها لواعج نفسه وهي تضطرب ، تنظر إليه ثم تغض
الطرف وتعبث بثوبها ، ثم تعود وتفرس في وجهه بعيون قلقة ، وراح يقول :

— إنني ذاهب وقد لا أعود .

فقالت في صوت متكسر مضطرب :

— ذاهب إلى أين ؟ .

— طلبت للجهادية ، وعما قريب تقع الحرب .

فقالت في فزع :

— الحرب ١٩ .

وانقبضت ودق قلبها رهبة ، واحتلت أقطار رأسها صورة حامد فاشتد
جزعها ، وتلفتت في قلق واضطراب فلمحت جدما يدنو منها فارتبكت ،
وسمعت الشيخ يقول :

— أهلا يا بنى ، وما الذى جاء بك الساعة ؟ .

فقالت سعدية في صوت مرتعش :

— جاء يودعك قبل أن يذهب إلى الجهادية .

فقال الشيخ إبراهيم في عجب :

— متى طلبوك ؟ .

— علمت منذ أسبوع ، فالحكومة ترى أن تستعد ما دام الجو متوترا .
وانطلقوا ، الشيخ ويوسف يتجاذبان أطراف الحديث ، وسعدية غارقة في
الصمت تفكر في حامد ، وقد نبت القلق في جوفها .

قال الشيخ :

— أظن أن الحرب واقعة ؟ .

فقال يوسف وهو يهز رأسه :

— أظن أن الخطر حقيقي ، فالصحف الإنجليزية تشن حملة مغرضة ضد
المصريين لتمهد للتدخل المسلح .

— وما موقف الخديو ؟ .

— يغار من عرابي بعد أن علا ذكره ، فمال إلى الإنجليز ، إنه لا يبت في أمر
إلا بعد أن يستشير إنجلترا .

— وما موقف الشيخ محمد عبده من الحركة ؟ .

— أصبح الشيخ محمد عبده من أتباع عرابي ، فهو يخطب في كل حفل
ليؤجج نار الثورة في الصدور .

فقال الشيخ إبراهيم وقد تألقت عيناه ببريق عجيب :

— إنني أمقت الحرب ، ولكن إذا جاء الإنجليز وجب علينا قتالهم ، إنهم
يريدون أن يفعلوا فينا ما يفعله الفرنسيون في تونس .

فقال يوسف وهو يلوى شفته في مرارة :

— إنها صفقة عقدتها إنجلترا وفرنسا ، أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في تونس ،
على أن تدع فرنسا إنجلترا تفعل ما تشاء في مصر .

وكانوا قد بلغوا الدار فقال الشيخ ليوسف :

— تفضل ..

فقال يوسف وهو يمد ليصافح الشيخ إبراهيم :

— متشكر ، فقد حان أوان ذهابي .

وتصافحا طويلا ، ثم قال الشيخ :

— مع السلامة .

ومد يوسف يده وصافح سعدية وقلبه يخفق بين ضلوعه كجناح حمامة ،
وغمغم :

— إن شاء الله نراكم قريبا بخير .

ودار على عقبه وانصرف والشيخ يتبعه بنظره ، وسعدية تنظر من بين
دموعها ولا ترى شيئا ، وإن كانت ترى بعين خيالها صورة حامد واضحة
مجلوة ، فتحس غصة في حلقها ووقدة نار ترعى في أحشائها ، وكانت تخشى
أن يتدلح لهيب الحرب دون أن تراه وتقول له إنها ستدعو الله في الليل وفي النهار
أن يعيده إليها سالما .

طفق الخديو إسماعيل يدبر مؤمرته من نابولي ، فكان كلما أخفقت مؤامرة راح يدبر مؤامرة أخرى ، فقد كان كل همه أن يجد ثغرة يدخل منها إلى مصر ويعود إلى عرشه .

وكان السير رفرز ويلسن يدبر مؤمراته من باريس ، لم ينس أنه خرج من مصر مطرودا فحنق عليها وراح يؤلب الدول ويغريها بالتدخل المسلح ، ولو أن سبب عداوته لمصر كان بغضه لإسماعيل باشا إلا أنه راح يعاون إسماعيل في مكائده ضد الوطنيين ، كان كل ما يبغيه أن يذر في أرض مصر القلاقل والفتن .

وكان السير ماليت يدبر مؤمراته من القنصلية البريطانية يؤيد الخديو ضد عرابي والوطنيين ويوسع شقة الخلاف بينهم ، وينفخ في نار العداوة والبغضاء ، حتى تناح له الفرصة التي ترقبها بلاده ، فرصة غزو البلاد الآمنة .

وكان شريف باشا يجتمع بمنزله بالحانقين على الوطنيين ، فكان يهدف إلى قلب الوزارة التي جاءت على أنقاض وزارته .

وكان توفيق مترددا بين سبيلين ، أن يسير مع الوزارة الدستورية وعرابي . أو ينضم إلى الرجعيين الأتراك ولو أدى ذلك إلى عودة والده . وأرسل إسماعيل باشا إلى وكيله راتب باشا ، وكان من ألد أعداء الوطنيين المصريين ، وأخبره أنه حصل على إذن بدخول مصر بوسائل سرية ، وأمره بالسفر والعمل على إشاعة الفوضى بين صفوف

المصريين ، لعل الفرصة التى يرقبها تواتيه ، والحلم الذى يداعب خياله فى الليل والنهار يتحقق .

وانطلق راتب باشا إلى مصر ونزل على أخيه البكباشى محمود طلعت ، وراح يزين له الثورة على الضباط الفلاحين ، حتى إذا ما انضم أخوه إليه أخذ يتصل بالضباط الجراكسة .

وفى ذات يوم اجتمع راتب وطلعت ونجاشى ومحمود بك فؤاد ابن أخت خسرو باشا وعثمان باشا رفقى ، وجعلوا يديرون قداح الرأى فيما يفعلون ، حتى استقر رأيهم على قرار فراحوا يعملون على إنفاذه .

ودعوا ضابطا شركسيا لينضم إليهم فقال لهم :
— إننى على استعداد أن أنضم إليكم إذ ما أخبرتمونى على ما عزمتم عليه .
فقالوا له :

— عزمنا على قتل الوزراء الحاليين ، ثم قتل كبار الضباط فى الجيش .
— إننى لا أحب سفك الدماء .

وذهب الرجل إلى عراى وأخبره نبأ المؤامرة ، فعرض عراى الأمر على هيئة النظر ثم على الخديو ، فتشكل مجلس حرنى لتحقيق ما نسب إلى المتآمرين .
وصدر حكم المحكمة العسكرية بنفى المتآمرين إلى السودان ، فرأى السير ماليت فى ذلك الحكم سانحة لتعكير الصفاء ، فراح يكتب إلى لندن أن العقوبة قاسية لا تقل عن حكم الإعدام ، وجعل يحرض الجرائد الإنجليزية على أن تهاجم عراى ، وعلى أن تدعى أنه ذهب إلى السجن وأن المتهمين عذبوا أمامه ! .

وذهب ماليت إلى الخديو وقال له :

— إن هذا حكم جائر ، فإذا كان المتهمون قد اعترفوا فقد كان ذلك بالإرهاب والتعذيب ، لقد كنت أسمع صراخا فى جوف الليل .
— وبماذا تشير على ؟ .

— أن تخفف الحكم عنهم .

وتجاهل السير ماليت الإنجليزى العريق فى الدستور أن تخفيف الحكم لم يعد حقا للخدو طبقا للدستور المصرى الوليد .

ودخل عراى على الخديو يحمل قرار المجلس الحربى الذى حكم على راتب باشا بتجريدته من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين وعدم العودة إلى مصر ، وعلى عثمان رفقى باشا بالنفى المؤبد وعلى الضباط بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان على شرط أن يكونوا متفرقين فى البلاد فى الجهات التى ينفون إليها . وتناول القرار وأطرق قليلا يفكر ، وإذا بصوت عراى ينساب فى أذنيه ، فيرفع الخديو رأسه يرنو إليه فى ذهول ، فما كان يصدق ما يسمع .

قال عراى :

— أرى تأليف القلوب خيرا من التفريق بين أعضاء الأمة ، والانتفاع بأولئك الضباط إذا تابوا لعقولهم خيرا من فقدهم فى فياق السودان المحرقة ، فأتمس من مولانا أن يبدل هذه الأحكام بأن يأمر بإرسالهم إلى الآستانة ، ثم يصدر عفوه عنهم بعد ذلك فيعودوا إلى أولادهم ووطنهم الذى اتخذوه وطنا لهم .

وأحببت مؤامرة الضباط الجراكسة فساء لإنجلترا أن يسود السلام ، فالحزب الوطنى قد نجح فى إقرار الدستور ، فإذا ما ترك وشأنه فسيصبح من العسير على الأجانب التدخل فى شئون البلاد ، فقد عزمت إنجلترا أن ترسل

أسطولها تحرشا بالوطنيين ، لتنفيذ ما بيتت العزم عليه .

وراح الناس يتهايمسون أن السفن البريطانية فى طريقها إلى مصر ، وساد البلاد توتر وذعر ، وارتفع الهمس لما دخلت إلى مياه الإسكندرية أول دارعة إنجليزية ، وانقلب إلى زئير وحنق وغضب .

لاح الخطر للعيون ، فدعا رئيس النظار محمود سامى البارودى الضباط لاجتماع فى ثكنات عابدين ، حتى إذا ما وافى الميعاد انطلقوا إلى غرفة على باشا فهى ينتظرون ، وأقبل محمود سامى والشيخ محمد عبده فساد السكون برهة ، ثم قال محمود سامى باشا :

— هاتوا نضدا ومصحفا .

فجاءوا بالنضد والمصحف ووضعوهما فى وسط الغرفة ، وقال محمود سامى :

— دخلت اليوم السفن الإنجليزية الإسكندرية وما جاءت إلّا الحربنا ، ففعالوا نقسم على أن نكون يدا واحدة فى الحرب إذا وقعت الواقعة .

فوضع الضباط أيديهم على المصحف ، وراح الشيخ محمد عبده يلقيهم القسم وهم يرددونه خلفه فى حماسة وانفعال .

قال الشيخ محمد عبده :

— والله العظيم ، والله العظيم ، والله العظيم ، قاهر السموات والأرض والمتسلط على القوى والقدر ، وحقى ما فى كتاب الله تعالى ، أننى وأنا فلان لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش أحدا من أهل بلادى ، ولا أدع أحدا أيا كان أن يتعدى على أحد من أهل بلادى ما دمت قادرا على منعه ، وأنى أحافظ ، على القانون العسكرى بكل ما يمكننى وعلى قدر استطاعتى ، وأن

نكون يدا واحدة ، وعصبة واحدة ، وإذا حثت يميني هذا أكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأن أكون محروما من مزايا الإنسانية والآداب .
وذاعت الشائعات وانتشرت الأقاويل ، وجاء في جريدة التيمس أن إرسال الدوارع إلى مياه مصر لم يقصد به إلا تعزيز الخديوى وتأيد سلطته ، فأول ما ينبغي إجراؤه هو حمل عرابى باشا على التنحي عن الإدارة السياسية وقلب الوزارة ، فراح زعماء الحزب الوطنى يعقدون الاجتماعات لتقرير ما ينبغي عمله .

اجتمعوا فى دار سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وراحوا يديرون قداح الرأى فقال سلطان :

— لن تستقر أمور البلاد إلا إذا خلعنا توفيق .

فقال عرابى باشا :

— هذا ليس بالرأى .

فثار سلطان وقال :

— اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب .

واستمروا فى نقاش لم يستقروا على رأى ، وجعلوا يوالون اجتماعاتهم يرقبون ما تتمخض عنه الحوادث .

وتقدمت الدولتان الإنجليزية والفرنسية بالإنذار الأخير للوزارة المصرية ، طلبتا فيه سقوط الوزارة وخروج عرابى باشا من القطر المصرى ، وإقامة عبد العال باشا حلمى وعلى باشا فهمى فى الأرياف لا يخرجان منها ، وتسريح صفوف العساكر فلا يبقى منها إلا القدر اللازم .

واجتمع النظار فى بيت رئيس النظار وقد ثارت ثائرتهم ، وراحوا يتحدثون

في أمر اللائحة التي قدمتها إنجلترا وفرنسا قالوا :

— ان هذا الإنذار يعتبر تدخلا في شئوننا ، ومن الواجب رفضه .

والتفت أحدهم إلى سلطان باشا وقال له :

— هل يمكن لنا أن نجمع مجلس النواب ؟.

فقال سلطان في تخاذل :

— أظن أن ذلك لا يكون إلا بأمر الخديو ، فنسأله في ذلك ولا ريب أنه

يوافق عليه .

فقال له أحد النظار في زراية:

— الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يكن قتله قبل أيام ؟!

وصمت سلطان ولم يتكلم ، وقال قائل :

— اجتماع مجلس النواب حق للشعب ، ونحن نوابه ، ولا بد لنا أن نطلب

النواب إلى القاهرة ، حتى لو أراد عرايى أن يوافق على طلب إبعاده إرضاء

للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه

الخلاف .

وتوجه رئيس النظار وناظر الخارجية إلى عابدين ، وقابلوا الخديو وقدموا

له رار النظار برفض اللائحة ، فقال الخديو :

— قدمت إلى نسخة من هذا الإنذار وقد قبلته .

فقال محمود سامي وهو ينظر إلى الخديو الذي ارتقى في أحضان أعداء

البلاد ، وفي عينيه زراية واحتقار :

— هذا خلاف عظيم بين الوزارة وبينكم يستلزم استدعاء مجلس النواب

للنظر في مصلحة بلادهم ، وإنا نلتمس صدور أمركم بجمع مجلس النواب .

فقال الخديو :

— لن أفعل .

قالها لأول مرة في قوة فما كان من طبعه أن يرفض طلبا ، ولا غرو فقد كان في حماية الأساطيل الإنجليزية ! .

وقدمت الوزارة استقالتها احتجاجا على قبول اللائحة ، وهاج الشعب ، وانطلقت المظاهرات ، ووفد إلى القاهرة أعيان البلاد ، وذهبوا إلى عرابي وقدموا إليه طلباتهم ، وكانت تنحصر في أمرين : رفض الإنذار ، أو عزل الخديو الذى قبل تدخل الأجانب في أحوال البلاد الداخلية ونومه على الضيم . وأصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها :

« بما أن الخديو قد حاول أن يبيع للأجانب ، وأطاع لإشارات قناصل أوروبا ، فإنه لم يعد يصلح لأن يكون وليا على المسلمين المصريين ، ويجب لذلك خلعه » .

وذهب عبد الله نديم إلى الإسكندرية ، وعقد اجتماعا حضره عشرة آلاف من المصريين الثائرين ، وراح يخطب فيهم يحضهم على رفض « اللائحة » التى تقدمت بها أوروبا ، ويدلل لهم على عدم كفاية الخديو الذى ارتقى في أحضان أعداء البلاد ، وما انتهى من خطبته حتى أجج نار الثورة في النفوس ، فلما ذهب الناس إلى بيوتهم أخذوا يعلمون أزواجهم وأبناءهم الاحتجاج على اللائحة . فلما نزل درويش باشا إلى الإسكندرية ، وكان موفدا من قبل السلطان للنظر في أمر اللائحة ، راح الأولاد يصيحون :

— اللايحة .. اللايحة ..

فتردد النساء صائحات :

— مرفوضة .. مرفوضة ..

— اللايحة .. اللايحة ..

— مرفوضة .. مرفوضة ..

وتفاهم الشر فهرع قناصل الدول ، ما عدا قنصل إنجلترا وفرنسا الضالعين مع الخديو في مؤامراته ، إلى عرايى وقالوا له :

— تخرجت الأحوال ، وإننا نطلب منك التأمين على رعايانا .

فقال له عرايى :

— لقد استعفيت ، ولا صفة لى تخولنى تحمل المسؤولية العظيمة.

فقالوا :

— إن الجيش لا يخالف إرادتك ، وأنت زعيم الحركة الوطنية ، فلاناً من على رعايانا إلا إذا تعهدت لنا بالسهر على حفظهم .

— سأبعث برقية إلى جميع مراكز الجندية ، بصفتى رئيس الحزب الوطنى ، أطلب منهم فيها أن يلزموا الهدوء والسكينة ، وأن يحافظوا على راحة الجميع .

وكان سلطان باشا قد مال إلى الخديو واستمع إلى نصائح ماليت ، فلم يؤيد الوزراء فى طلبهم دعوة مجلس النواب ، وأراد أن يكفر عن خطئه فدعا إلى منزله أكابر القوم وعرايى وعبد العال وعلى فهمى ومحمد عبده ليصالح ما بين الوزارة والخديو ، فلما التأم الجمع دار النقاش واشتد واحتدم ، ثم قرر الجميع أن يطلب من الخديو أن يرفض الإنذار الثانى وأن يأمر بإعادة عرايى إلى وزارة الجهادية أو يعزل. عزلا .

وارتفعت أصوات الضباط والجماهير التى وفدت إلى حديقة المنزل

تهتف :

— اعزلوا الخديو ، اعزلوا من دعا الأجانب للتدخل في أمرنا ، اعزلوا من استعان بأعدائنا ليهددونا بأساطيلهم .

وخرج عراي ومن معه من الضباط وانطلقوا إلى منزل محمود سامي رئيس النظار ، وفيما هم في طريقهم قابلهم عبد الله باشا فكري أستاذ الخديو ومربيه فالتفت إلى عراي وقال له :

— هل قتلتموه؟!

— من تعنى ؟

— أعنى الخديو .. ألم يقتل بعد ؟!

— إننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى .

واستدعى الخديو النواب والأعيان والعلماء وقال لهم :

— إن السياسة اقتضت استعفاء الوزارة وقبول إنذار الدولتين فرنسا وإنجلترا ، وإنى حفظت لنفسى رئاسة الجهادية وإدارة المصالح الإدارية حين تشكيل وزارة جديدة .

فقال النواب له :

— إننا نلتمس عودة عراي إلى الجهادية ليطمئن الجميع .

ودخل القناصل على الخديو ، ما عدا قنصلى فرنسا وإنجلترا ، وقالوا :

— إننا نطلب عودة عراي إلى الجهادية ، فلن يستقر الأمن ما دام عراي

بعيدا عن الجهادية ..

وجاءت إلى الخديو برقية من ضباط آلايات الإسكندرية :

« إننا لا نرضى بغير عراي باشا ناظرا للجهادية ، فإن مضى ١٢ ساعة ولم

يرجع إلى منصبه كنا غير مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه » .
أرغم الحديو على إعادة عراى ، فكتب له : « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة
النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الأمن والراحة ، استصوبنا بقاءكم
فى نظارة الجهادية والبحرية ، وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا
بإجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية الكافلة لحفظ الأمن العمومى على الوجه
المرغوب ، كما هو مقتضى إرادتنا » .

وأصدر عراى منشورا إلى قناصل الدول تكفل لهم بتأييد الأمن والراحة
لجميع سكان القطر وطنيين وأجانب ، وراح يجمع الرديف تأهبا للحوادث ،
 واجتمع الحديو بالسر ماليت وسفير فرنسا، وتوالت اجتماعاتهم بالليل والنهار ، فقد
عز عليهم أن يعود عراى إلى مسرح السياسة رغم أنوفهم ، فراحوا يدبرون
مؤامراتهم ليقضوا عليه ويتخلصوا منه .

تمددت خديجة في فراشها تحس وقدة نار في حلقها ، وتجري دموعها على خديها . كانت غارقة في الأسى ، فغدا يودعها عمار ويذهب ويتركها للوحدة المريرة التي تتخايل لها كشبح مخيف .

كان أزواجها يفرون منها دون أن يودعوها بعد أن يبددوا كل ما تملك ، فكانت تحزن قليلا ، ثم تستأنف جهودها لتجمع ما يغرى رجلا على أن يتقدم إليها ليتزوجها إلى حين ، وكانت تهيب نفسها منذ الليلة الأولى لزواجها لهذه اللحظة القاسية ، ولكن عمار لم يفكر في الفرار ، فما بدد لها مالا ، وما حاول أن يستغل حبها له ، كان كل ما يبغيه أن يعيش معها دون أن يضطر إلى أن يعمل ، فلما كفلت له ذلك عاش معها ، قانعا بحياته راضيا بما هو فيه !

كانت سعيدة مغتبطة ، وقد أفعم قلبها بحب زوجها الذي عاشت قانعة في ظله ، وقد اطمأنت إلى غدها ، ولكن القدر لم يغفل عنها فراح يفرق بينها وبين زوجها .. تخرجت الأمور بين مصر وبريطانيا فرأى عراى أن يطلب الرديف ، فكان على عمار أن يترك خديجة وأن يذهب .

وأحست النار في جوفها فشرقت بدموعها ، فدنا منها عمار وهمس :
— أما زلت تبكين ؟ لماذا كل هذا البكاء ؟

فقلت فى أسى :

— أخاف أن يصيبك مكروه .

فقال لها يواسيها :

— اطمئنى ، لن يصيبنى شىء ، لقد حاربت فى الحبشة ، واشتركت فى

معارك طاحنة خرجت منها سليما .

فقلت فى مرارة :

— نجوت لأنه لم يكن هناك من يحتاج إليك .

فقال لها وهو يحاول أن يسرى عنها :

— اطمئنى ، عمر الشقى بقى .

فقلت خديجة فى ضيق :

— ماذا كان يحدث فى الدنيا لو تركوك لى ؟!

فقال عمار فى حماسة :

— هذه أول مرة أذهب فيها إلى الحرب وأنا مستريح الضمير .. حاربت فى

الحبشة وما كنت أدرى لماذا أحارب ، كنت أخوض القتال مرغما وما كان

همى إلا أن أنجو بنفسى ، أما الآن فإننى أحس أننى خارج للدفاع عن شرفنا ،

أيرضيك يا خديجة أن نملك هنا ونترك الإنجليز يستولون على بلادنا ؟!

فقلت خديجة فى ابتهاج :

— ليت هذه الحرب لا تقع .

فقال عمار مؤمنا :

— يا ليت ، إننا لا نريد الحرب ولا نحب أن نشعل نارها ، ولكن إذا أكرهنا

على خوضها فليس لنا مفر .

— ماذا لهم . ماذا يريدون منا و لماذا لا يتركوننا آمين ؟

وأجهشت بالبكاء ، فدنا منها عمار وضمها إلى صدره وهمس :

— كفكفى دموعك ، ماذا ينفع البكاء ؟

وأحست راحة وهى بين ذراعيه فأخذ حزنها ينقشع ، واستسلمت لمشاعرها الحنونة التى تفجرت فى أعماقها فتشبثت به وضمته فى شدة إلى صدرها الولهان .

وأشرقت الشمس وتأهب عمار للانطلاق ، فتجددت شجونها وجعلت ترقبه ملهوفة فى قلبها شجن وفى حلقها غصة وفى عينيها دموع ، وحانت ساعة الرحيل فراح يصافح الشيخ إبراهيم وسعدية ، وتعلقت خديجة به وهى تبكى بصوت عال .

وسار لا يلتفت ، فغطت خديجة عينيها يديها وانخرطت فى البكاء ، ولفت سعدية ذراعيها حولها فى رفق وقد غمرتها موجة من الأسى والحزن ، ووقف الشيخ إبراهيم ذاهلا وقد غامت عيناه بالدموع .

واختفى عمار عن العيون ، فدنا الشيخ من ابنته وقال لها فى صوت متهدج :

— كفى يا خديجة .. كفى بكاء .

فرفعت رأسها وقالت :

— ذهب .. ذهب ..

فقال الشيخ فى أسى :

— غدا يعود .

— هيات .

ولحت العبرات تترقق في مآقي الشيخ فقالت :

— ليس لنا إلا الدموع .

فقال الشيخ إبراهيم في مرارة :

— إنني أبكى ، لأنني لا أستطيع أن أذهب معهم .

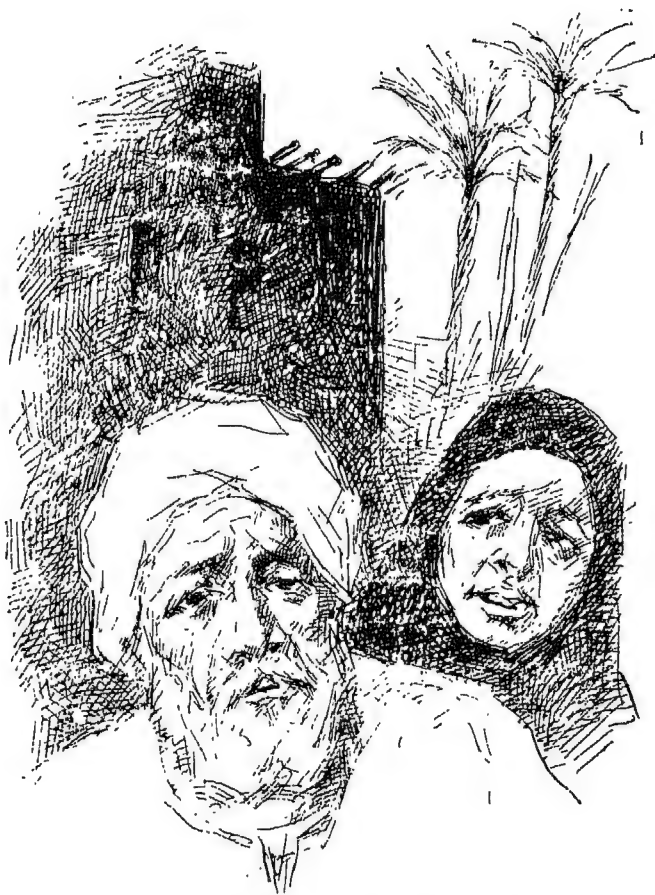
٣٧

ساء الخديوى أن يعود عراى إلى وزارة الجهادية رغم أنفه ، فراح يفكر فيما يفعله ليتخلص منه ويستريح . ضمن عراى أمام القناصل سلامة الأجانب ، فإذا أمكنه إثارة الفتن كان ذلك داعيا لتدخل الإنجليز والفرنسيين ، ولتنحية عراى من طريقه وتثبيت عرشه .

رأى أن الجيش قد خذله ، فخطر له أن يشتري البدو وأن يعتمد عليهم في إثارة القلاقل وإيقاظ الفتن ، فأرسل إلى مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحضرهم إليه .

وجاء الأعراب ومثلوا بين يديه فقابلهم مرحبا باشا ، وجعل يظهر لهم الود ، ثم طلب منهم أن يجمعوا ثلاثة آلاف رجل وأن يفسدوا إلى العاصمة ، كان يمنى النفس أن يعكرو صولهم صفو السلام ، ولكن البدو أحجموا خشية بطش الجيش بهم .

ولم يقنط الخديو وراح يفكر في دسياسة أخرى ، إنه وزير الداخلية ومحافظ الإسكندرية عمر لطفى يتلقى الأوامر منه .. فلماذا لا يستغل هذا



إنني أبكي ، لأنني لا أستطيع أن أذهب معهم

الجر كسى الطامع فى الوزارة فى تنفيذ مآربه ، فإذا كان قد عجز عن إثارة القلاقل فى القاهرة فليجرب إثارتها فى الإسكندرية .. وأرسل إلى عمر لطفى برقية رمزية :

« ضمن عراى الأمن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولاً أمام القناصل ، فإذا نجح فى حفظ الأمن فلا بد أن تضع فيه الدولة ثقتها ، وعندها يضيع ما لنا من اعتبار .. أضف إلى ذلك أن أساطيل الدول فى مياه الإسكندرية ، والخواطر متهبجة ، فعليك الآن أن تختار لنفسك : إما أن تخدم عراى فى ضمانه للأمن ، وإما أن تخدمنا » .

واختار عمر لطفى لنفسه أن يخدم الخديو ، ففى خدمته خدمة لمصالحه وإن جرت على البلاد الذل والهوان .

وراحت جريدة المحروسة ، وهى لسان عمر لطفى المعبرة عن آرائه ، تنشر على الملأ أن الأوروبيين فى الإسكندرية يقومون باستعدادات حربية فتبليت الأفكار ، وساد الإسكندرية توتر وقلق ، وأخذ مندوبو عمر لطفى يوزعون النبايت على الرعاع سرا ويومونهم أنهم ما يفعلون ذلك إلا لمحبتهم لهم ، فهم يسلحونهم حتى إذا ما اعتدى عليهم الأجانب كانوا على قدم الاستعداد ! . وعمل المستر كوكسن قنصل إنجلترا فى الإسكندرية على إثارة الخواطر ، فجمع قناصل الدول وقال لهم :

— إن المصريين فى هياج شديد من وجود الأساطيل الحربية فى الثغر ، وأخشى من هجوم الرعاع على الأوروبيين وأخذهم على غرة ، وإن الحزم يقضى علينا بالمداولة فيما يجب اتخاذ من التدابير لحفظ أرواحنا وأموالنا . وقرروا بإجماع الرأى أن يتسلحوا كأنما كانت مصر هى التى أرسلت إليهم

أساطيلها لتهدد سلامتهم ، وأخذ الأسطول البريطاني يسرب البنادق
والمسدسات إلى الإنجليز والمالطيين .

وجاء يوم الأحد ، واجتمع أوشاب الأجانب وأوشاب الوطنيين في
الحانات ودور اللهو ، وانطلق أحد المالطيين لزيارة أخيه ، وكان في خدمة
المستر كوكسن ، فلما انتهت الزيارة منحه كوكسن جنبا ، فخرج المالطي
وركب عربة راح يدور بها على الحانات في الحى الأوروبى !

ووصل أخيرا إلى قهوة الجزار في شارع الأخوات ، وأراد أن يصرف
السائق فوضع في يده قرشا واحدا ، فثار السائق وصاح به يناقشه ، وتطورت
المناقشة إلى شجار ، فأطبق الحوذى على رقبة الرجل فما كان من المالطي إلا أن
طعنه بسكين ، وجاء رجل ينصر المظلوم فهم يونانى وقتله ، واندلعت الشرارة
التي تعاون الخديو والإنجليز على قدها .

وخف الناس إلى المكان ، فإذا برصاصة تطلق من منزل مالطى ، وإذا
بالمستر كوكسن يخرج من نفس المنزل ، فثار الناس واعتدوا عليه ، فقد
حزروا أنه مشعل نار الفتنة والمحرض على إطلاق النار عليهم .

وخف إلى المعركة البرابرة والأعراب مدججين بالعصى التي وزعها أعوان
المحافظ عليهم ، وجاء عمر لطفى ليزكى نار الثورة ، فدنا منه أعرابى وأشار له
إلى أحد الأوربيين المطلين من النوافذ وفي أيديهم مسدساتهم وقال له :

— هل أطلق النار على هذا الرجل يا باشا ؟

فقال عمر لطفى :

— نعم اضربه .

وأطلق الأعرابى رصاصة فأردى الرجل قتيلا .

وراح أحد خدم المستر كوكسن يطوف على الأوروبيين ويحرضهم على التقدم والمثابرة على القتال ، وأراد عمر لطفي أن يزيد النار اندلاعا فأمر بعض أعوانه أن يعرضوا القتلى على الجماهير ليؤجج نار الثورة في صدورهم فتنتشر الفتنة وتبداح حتى تغمر المدينة كلها .

وأراد عمر لطفي أن تتم حلقات تديره ، فانطلق إلى تليفون قريب واتصل بالقناصل وطلب منهم الذهاب إلى قسم اللبان . وخف القناصل إلى المكان ، فلما رأهم الناس ثاروا عليهم ، حسبوهم ما جاءوا إلا ليشدوا أزر المعتدين فهجموا عليهم حائقين يسددون إليهم ضربات .

وانسل عمر لطفي بعيدا بعد أن أشعل نار الفتنة ، ورآه رجل يعرفه بالقرب من زيزينيا فقال له في دهش :

— كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟

فقال عمر لطفي في استخفاف :

— لست بقائد ، وهذا لا يعنيني .

— لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهرا سيفك في خمسين من

عساكر المحافظة ، وبذلك كان الأمر ينتهي ؟

فقال له عمر لطفي في غلظة :

— انصرف ليس هذا من شأنك ، وهل أنت محافظ البلد ؟

وأسرع عمر لطفي يتصل بالخدو ، فأرسل إليه برقية يخبره فيها أن الأمر أصبح خطيرا ، وأن النهب يجري في المدينة ، وأن زمام الأمر أفلت من يده .

فأبرق إليه الخديو : « اطلب المعونة العسكرية من الأميرال سيمور ، ولا تطلب جنودا مصرية » .

ولم يستطع أحد الأمير الايات بالإسكندرية أن يبرق لعراى بما حدث فى المدينة ، فقد كان التلغراف مشغولا بالبرقيات المتبادلة بين عمر لطفى والخدوى .

وهرع عمر لطفى إلى الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى يلتمس منه العون ، ولم يطلب معونة السلطات المصرية على الرغم من أن معسكر الجنود النظاميين كان على مقربة من الحادث . كان كل همهم أن يقيم الحجة أمام القناصل أن عراى عاجز عن حفظ الأمن حتى يتمكن الخديو من عزله .

ورفض الأميرال سيمور التدخل ، فقد كان ينتظر حتى تندلع نار الثورة وتعم الفوضى فيجد فى ذلك مبررا قويا لضرب المدينة .. وأبرق عمر لطفى إلى الخديو :

— الأميرال غير موافق خشية أن يحدث شىء آخر من الجنود فى المدينة ، مما يكون من الصعب تلافيه ..

وأرسل عمر لطفى إلى الأميرالاي سليمان سامى رسالة شفوية يطلب منه فيها أن يحضر هو وفرقة إلى المدينة بدون سلاح ، فخفف الأميرالاي إلى حيث استدعى ، فلما رأى الثورة الهوجاء ثار فى وجه عمر لطفى وقال له :

— أنت خائن لوطنك ودينك .

وحقد عمر لطفى عليه ، وأبى سليمان سامى أن يطيع أوامره ، وبلغ خبر تلك الفتنة إسماعيل باشا كامل قائد آلايات الإسكندرية فأسرع بإرسال الآلاى الخامس والسادس إلى ساحة المنشية ، وانطلق على رأس قواته .

وعند غروب الشمس نامت الفتنة .

أثار الخديو وأنصاره الاضطرابات ، وكانوا يهدفون إلى طعن عرابى الطعنة النجلاء . كانوا يريدون أن يظهره أمام الأجانب عاجزا عن حفظ الأمن ، ولكن ما أن ظهر الجيش فى الميدان وقبض على ناصية الأمر حتى نظر الأجانب إلى عرابى نظرتهم إلى منقذهم الذى خلصهم من المذبحة الهائلة والثورة الهوجاء ، فازداد رفعة وعلو شأن .

هدأت الحالة فى الإسكندرية فأرضى عرابى ذلك الهدوء ، ولم يستغل ارتفاع شأنه فى أن يضرب ضربه القاضية على خصومه ، فلو أنه كان يعرف أن عمر لطفى باشا هو محرك الفتنة وموقفها ، وأن بعض الضباط كانوا قد هموا بالقبض عليه واتهامه بتهمة التحريض ، وأن أكثر الذين قبض عليهم قالوا إنهم ما فعلوه إلا بأمر المحافظ وبرضاه ، إلا أنه لم يطلب محاكمته ليثبت للجميع أنه ليس فى البلاد يد أقوى من يده ، وأن العقاب سريع النزول بمن يعث بالأمن ، بل قبل أن يكون عمر لطفى رئيس لجنة التحقيق فى أسباب المذبحة التى أوقد نارها ! .

وعلى الرغم من الهدوء الشامل واستتباب الأمن راحت إنجلترا تتأهب للتدخل المسلح ، فأرسل وكيلا النمسا والمجر وألمانيا إلى حكومتيهما :
 « إن نتيجة التدخل الحربى الأجنبى ، ما لم يكن مصحوبا بجيوش

تركية سيجعل حياة الأوربيين في خطر ، وإننا نعتبر المسألة السياسية ثانوية بالنسبة لحياة رعايانا ، وإننا نؤيد الرأي القائل بوجوب ترك المسألة في يد الباب العالي وحده ، ونعتقد أن أصلح الطرق لتجنب أهوال المصائب أن يخرج ماليت من البلاد ، وأن ييرحها الأسطول » .

ورأى ماليت أن حياته السياسية قد قضى عليها ، وأنه لن يستطيع أن يتشلها من برائن الموت إلا إذا أشعل الحرب ، فراح ينفخ في جمره الحرب ليزكى ناراها .

وعين راغب باشا رئيسا للوزراء ، وكان الناس يعرفون ميوله التركية فلم يرحب بتعيينه إلا الجراكسة ، وعين عرابي وزيرا للجهادية ، وأراد أن ييث الطمأنينة في النفوس فالتفت إلى من حوله وقال :
— فلنركب عربة ولنسر في شوارع المدينة لكي نبعث الثقة في صدور الناس .

فركب هو وعلى فهمي باشا في عربة ، وركب عبد الله نديم وآخر في عربة ، وساروا تتقدمهم الجنود ، وراحوا يذرعون شوارع الفجالة والناس يتهلون بالدعاء :

— الله ينصرك .. الله ينصرك ..

ولما وفد الليل انطلق عرابي وصحبه إلى منزل السيد حسن موسى العقاد ، وكان من ثروة التجار ، فألقوا الدار غاصة بالوطنيين الأحرار ، فقد كان السيد من مؤيدي الحزب الوطني المطالب بحقوق البلاد .

ودلف عرابي ومحمود سامي البارودي والشيخ محمد عبده وعبد الله نديم إلى الغرفة الكبرى ، وراحوا يتحدثون وينشدون الأشعار ، فقال عبد الله نديم :

— تعالوا نهجو راغب باشا بأبيات .

فهجاه عرابى بيت ، وهجاه الشيخ محمد عبده بيت ، وهجاه نديم بأربعة أبيات ، وهجاه البارودى بقصيدة ، وراحوا يلعنون السلاطين والأمم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو إلى عبد الحميد .

وعادوا للاجتماع بعد العشاء فأخذوا فى الحديث فى السياسة ، وتكلموا عن أنواع الحكومات وأساليبها ، فقال قائل :

— إنى أفضل النظام الجمهورى .

فقال محمود سامى البارودى :

— كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا وليها الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت .

وراحوا يتناقشون فى المسائل السلمية التى يمكن اتخاذها لكى تعبر مصر أزمتها الحاضرة ، فقال الشيخ محمد عبده :

— أجمعت رأى على أن أجمع جميع الوثائق والمستندات التى لدى أو التى أستطيع حيازتها ، وأذهب بها إلى إنجلترا لكى أعرضها بنفسى على غلادستون والبرلمان الإنجليزى ، وسأخذ معى أحد وجهاء التجار ، وأحد الأحرار ممن ينوبون عن الفلاحين .

فقال محمود سامى البارودى :

— أوافق على هذا رأى ، وإننى أريد أن أذهب إلى أوروبا لهذه الغاية .
ولكن الحوادث راحت تجرى أسرع مما يقدرون .



وهجا البارودی راغب باشا بقصيدة

ضايق الخديو أن يقبض عراى على زمام الأمور ، وزاد فى حنقه ما بلغه أن إنجلترا قد تسحب ماليت وكان قد اتخذته مستشارا له يعمل بنصائحه ليتخلص من الوطنيين ، فسافر إلى الإسكندرية ليكون بالقرب من الإنجليز .

سافر عراى فى معية الخديو الذى بات يغار منه ويخشاه ، فلما بلغا الإسكندرية انطلق عراى ليقابل الأميرال سيمور ، فلما دخل عليه وحياء ألفاه متغطرسا متنفخ الأوداج يهدر فى حديثه كالموج ، وراح يصيح :

— لن أصفح عنكم أبدا ، لقد قتلتم مستر اکت .

فقال له عراى :

— إننى لم أقتل أحدا .

— إذا كنت لم تقتله فقد قتله إخوانك .

— كانت فتنة ، وقد عاد السلام ، ونرجو ألا يعكر أحد صفوه .

فقال سيمور فى غلظة :

— البلاد فى فوضى ، ولولا تشجيعكم للغوغاء ما قتل مستر اکت .

فقال له عراى فى حدة :

— لولا تحرشكم بنا ما تعكر صفو السلام لحظة ، أوقدتم الفتنة وأخمدناها .

— قتلتم اکت وسيكلفكم ذلك غالیا .

وخرج عراى وهو يعجب من ذلك الحديث الذى دار بينه وبين الأميرال سيمور . كان أشبه بحديث الذئب والحمل ، كان الأميرال يتلمس الأسباب لضرب الإسكندرية ، وراح يهدد بضررها انتقاما لخادمه اکت الذى قتل فى المذبحة .

وظفق الخديو يجتمع بالإنجليز ، وأسر إلى كولفن أنه غير واثق من استمرار الأمن والراحة ، وأنه يرى ضرورة مجيء جنود إنجليزية لإعادة الراحة والطمأنينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل عمر لطفى إلى الأميرال سيمور يقول له :

— إننى غير مسئول عن النظام ، وأن عرابى عاجز أيضا عن المحافظة عليه ، وإنى أتوسل إليك أن ترسل فرقا من عندك لتحافظ على أرواح الأجانب .
ولم يرحب سيمور بهذا الطلب ، فقد كان أسطوله يتأهب للغدر .
وذاعت هذه الأنباء بين الجماهير فاشتد جزع الناس ، وزاد فى قلقهم أن قناصل الدول نهوا على الرعايا بالهجرة من الإسكندرية ، وطلبوا منهم أن يكتبوا ما عندهم فى دفتر ، وأن يزيدوا عليه ليربحوا ما يشاءون إذا ضرب الأسطول الإسكندرية .
وباتت الإسكندرية على فوهة بركان !.

بات الغدر مرتقبا ، فالأميرال سيمور يدعى أن الجهادية المصرية تهدد الأساطيل الإنجليزية بتحسين القلاع وإقامة الحصون ، وراح يتوعد بدك الإسكندرية دكا إن لم تكف الجهادية عن تقوية الاستحكامات .

وراح عراى يفند هذه المفتريات :

— إن مصر لم تعتد على الإنجليز ولم تهدد أساطيلها الحربية ، بل هى التى تهددنا بمراكبها الحربية ، وكل ما فى الأمر أن الجارى فى الاستحكامات إنما هو ترميم المختل منها حسب العادة السنوية وإذا كانت الدونمة الإنجليزية متخوفة من استحكاماتنا ، ولم ترد شرا بنا ، فلتقلع عن مينائنا وتعود إلى بلادها بسلام .

كان الأسطول البريطانى يريد بمصر شرا فلم يغادر المياه المصرية ، وغض سمعه عن منطق الحق ، وراح الإنجليز يتحرشون بالمصريين يتلمسون سببا يبررون به غدرهم .

وأخذ عراى يشحن القلاع والطوابى بالمقاتلين البواسل ، فتدفقت الجنود على الحصون ، وقامت الاستعدادات على قدم وساق لرد الاعتداء والذود عن البلاد .

ودخل حامد طابية صالح مع الداخلين ، وراح يتلفت حوله فى ذهول ، رأى مدافع ملقاة فى الحصون بعضها إلى جوار بعض ، ومدافع

قد صوبت إلى البحر يعلوها التراب كأنما لم تمس من سنين ، ودبت الحياة في القلعة ، وصدرت الأوامر متتابعة متلاحقة ، وراح الجند يغدون ويروحون في قوة وعزم ، فأحس نفسه تتضائل وإن شعر بالدماء الحارة تتدفق في عروقه ، وبإحساسات فوارة تمور بين جوانحه .

وتقدم وأطل على البحر وراح يدير عينيه حوله ، فرأى في الجهة الغربية حصن مريوط شامخا ضخما يشرف على الميناء وقد قام خلفه حصن المكس وقد استقر على مرتفع من الأرض يتحكم في مدخل الميناء ، وقد امتدت بين حصن مريوط وحصن المكس استحكامات تعززها المدافع .

ومد بصره إلى الجهة الأخرى من الميناء فألقى قلعة الفنار تشرف على الميناء الداخلية وقد أطلت منها فوهات المدافع ، ورأى في رأس التين مدفعين عظيمين يتحركان صعودا وهبوطا ، وحصن قايتباي بمبانيه الحجرية الضخمة يحرس مدخل الميناء الشرقية ، ويشترك معه في هذه الحراسة حصن بابلون .

ورمى ببصره إلى البحر فألقى البوارج البريطانية راسيات كالأبالسة في الميناء ، فلو أن الأوامر صدرت الساعة بإطلاق النيران من الحصون عليها لدمر ذلك الأسطول الذي تتيه به إنجلترا ، ولأطبق عليه البحر .

وراح يوسف يتجول بالقرب منه دون أن يتبادلا كلمة أو يلقي أحدهما على الآخر تحية ، فقد هرع يوسف إلى حامد يوم التحقق بفرقة ليحييه ويقص عليه أنباء جده الشيخ وخالته خديجة وعمار ، ولكن حامدا أشاح بوجهه عنه وأعطاه كشحه ، فما غفر له يوما أنه تقدم لخطبة سعدية وهو يعلم أنه أحق بها منه .

وعاشا متنافرين وإن اشتركا في الأحلام ، فطيف سعدية يؤانسهما في

اليقظة الحاملة ويطوف بهما فى المنام .

وراح الأميرال سيمور يخرج أسطوله من الميناء إلى عرض البحر ليتأهب
لضرب الإسكندرية ، فثارت الدماء حارة فى عروق الشبان وقالوا :
— لماذا لا نفرق هذا الأسطول ؟ .

فارتفعت أصوات الاعتراض :

— إننا لا نبدأ بالعدوان .. « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وخرج الأسطول البريطانى إلى عرض البحر ، وراح الأميرال سيمور
يرسل انذاراته ، ثم أرسل إنذارا أخيرا يطلب فيه تسليم بعض الحصون ، فأبى
المصريون ذلك الهوان ، وأخذ الطرفان يتأهبان للمعركة الرهيبة التى توشك
أن تنشب بين الحق الذى أخذ على غرة والباطل الذى أحكم تدبيره وبيت
غدره بليل .

وعلم قناصل الدول بعزم الأميرال على ضرب الإسكندرية فأوعزوا إلى
رعاياهم بالهجرة ، وشاع الخبر بين الناس فراحوا يتسابقون إلى محطة السكة
الحديدية فرارا من الفزع الأكبر .

واتفق الخديو توفيق مع الإنجليز على أن يباح سراى رأس التين ويتوجه إلى
سراى الرمل ليكون بعيدا عن نيران الأسطول . ولما كان الإنجليز قد بيتوا النية
على ضرب الإسكندرية فى الغد فقد أخذ الخديو يتأهب لمغادرة رأس التين ،
والتفت إليه أحد الأميراليات الذين كانوا فى معيته وقال فى إشفاق :

— ما مصير الإسكندرية لو ضربها الإنجليز ؟ .

فهز الخديو كتفيه فى استخفاف ، فقال له الأميرالاي :

— سيحرقها السكان ، فأرجو أن تتوسط لدى الأميرال فما زال الوقت يسمح بذلك . استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية .

فقال الخديو في شماته :

— فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها حجر على حجر ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رعوس أولاد الكلب الفلاحين .
وذهب الخديو إلى الرمل ، وانسحب المحافظ واختفى موظفو المحافظة ، وباتت الإسكندرية تنتظر مصيرها .

٤٠

أشرفت شمس يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر يوليو من عام ١٨٨٢
والأسطول البريطانى يتأهب لغدره ، وما وافت الساعة السابعة حتى
أطلقت المدرعة « ألكسندرا » أول قذائفها على استحكامات
الإسكندرية ، وتلتها المدرعات الأخرى تقذف حممها على الحصون
والقلاع وقصر رأس التين والمدينة التى هب سكانها مفزوعين وانطلقوا
مرعوبين ذاهلين كالأعاصير ، أو كماء أنهار سده راح يتدفق فى قوة
وجنون .

وأطلق الأسطول عشرين قذيفة والقلاع المصرية صامته وإن كانت
الثورة تمور فى الصدور ، والدماء الحارة تجرى فى العروق ، فقد صدرت

الأوامر إلى القوات المصرية أن تترث لتسجل على البريطانيين الاعتداء . كان المصريون يتعلقون بالأوهام ، حسبوا أن العالم الحر سيثور على الظلم والعدوان ، وما دار بخلداهم أن الضمير العالمى قد مات !.

وأطلقت النيران حامية من الحصون والقلاع فأصبح دوى المدافع يصم الآذان ، وتطايرت القذائف ، كانت قذائف الأسطول تصيب الحصون فتتطاير الحجارة تشج الرجال وتدمى الأبطال ، بينما كانت قذائف القلاع تطيش فى الهواء فما كان للمدافع المصرية مساطر لقياس المسافات وإحكام إصابة الأهداف .

وارتفعت الشمس وأرسلت أشعتها حامية تشوى الوجوه ، وأثير النقع وسد الغبار الأفق وأظلم الجو ، وآلاف الرجال والنساء والأطفال يهيمون على وجوههم والفزع ملء نفوسهم ، قبدوا على شواطىء المحمودية كخطوط سوداء عريضة تارة ، دقيقة تارة أخرى . كانوا يتحركون فى كل جهة يسوقون أمامهم بعض دوابهم ، ويحملون على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم ، ويضمون إلى صدورهم فلذات أكبادهم ، ونال الجهد من بعضهم فتخلفوا يلتقطون أنفاسهم ، واشتدت وطأة الحر عليهم فذهبوا إلى العربات المقلوبة يتفيئون ظلها .

وراح بعض النسوة يبحثن عن أولادهن ملهوفات ، وارتفعت الأصوات وتبادلت النسوة السباب ، ثم أخذن يتشاجرن وطفقن يتضاربن ، والعربات التى تجرها الخيل تنساب كالريح لا تلوى على شىء ، فتثير الغبار وتطلق من الأفواه اللعنات ..

واستمرت القذائف تنهيج وتزأر فبدا البحر كقطعة من النار . وطفق

المصريون يغدون ويروحون في الطوايى والقلاع ينقلون الذخائر إلى المدافع تحت وهج الشمس المحرقة التى كانت تلفح الوجوه ، وتفصد العرق غزيراً من الأجسام ، وخف بعض الأهالى إلى الجنود يعاونونهم ، وهرع بعض النسوة يضمدن جراح المدافعين البواسل ، وصاح صائح :
— دافعوا عن شرفكم ، دافعوا عن أعراضكم .

فأحس حامد ثورة عاتية تتفجر فى أغواره ، وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، فقد احتلت أقطار رأسه صورة سعيدة وهى تيبب به أن يدافع عنها ، وأن يحمىها من هؤلاء الأوغاد الذين جاءوا يقاتلون الآمنين ليجللوهم بالذل والعار .

وجعل حامد يحمل القنابل إلى المدافع وقد امتلأ حماسه ، وقد ذهل عن كل شىء حوله فما عاد يلتفت إلى أحجار الحصن التى كانت تنقض فوقهم وتضخمهم بالجراح ، وطارت قطعة من الحجارة وأصاب ذراع يوسف فندت منه صرخة ، فالتفت حامد إليه فلما رآه يئن ويتوجع نسى كل ما كان بينهما ، وهرع إليه يخلع عنه قميصه ويضمده له جرحه ويقول له :
— لا بأس عليك ، تشجع .

فكتم يوسف آلامه وأبتسم له ابتسامة اغتصبها اغتصاباً ، ثم نهض يحمل القذائف إلى المدفع بذراعه السليمة .
وجلجل صوت فى الحصن :

— هذا يوم له ما بعده ، ذودوا عن نسائكم .

فجعل الرجال يذرعون الطوايى والقلاع كالشياطين ، ولكن قذائف الأسطول كانت تدك الحصون دكا ، وخفقت أصوات قذائف المعازل المصرية

وارتفع الأنين ، فقد خلصت الجراح إلى الأبطال المدافعين ، وراحت دماؤهم الزكية تروى أرض الحصون ..

وأصاب شظية صدر حامد فانبثق دمه وسال ، ولكن حامد ظل يذرع الحصن جيئة وذهوبا يحمل القذائف لا يحفل بما أصابه ، حتى إذا ما جاءت قذيفة وأطاحت بساقه انهار كما ينهار الجدار .

• وسكنت جميع الطوابى المصرية ، إلا طابية صالح فقد راحت تقاوم في عناد ، فصوبت قذائف الأسطول إليها لتدكها على من فيها .

ودمرت مدافع القلعة كلها وبقي مدفع واحد ، واستمر وحده يقاوم أسطول الدولة الطاغية الباغية !

وقتل الواقف خلف المدفع فخف آخر ليحل مكانه ، وأصيب فأسرع آخر ليسدد الطلقات إلى الأعداء ، وكان كلما سقط رجل هرع آخر ليصوب قذائفه إلى الأوغاد ..

وغطيت أرض القلعة بجثث المدافعين عن ديارهم ، والدماء الطاهرة تروى الأرض الطيبة ، وبقي جندي واحد سليما ، فعز عليه أن تسكت القلعة وفيه نفس يتردد . فراح يعدو إلى حيث كانت القذائف يخمل قنبلة ثم يعود بها إلى المدفع يطلقها على الأعداء ، ثم يعدو كإرد جبار إلى مكان القذائف ليتناول قنبلة أخرى يطلقها في وجه قراصنة البحر الذين جاءوا يتلمسون أوهى الأسباب ليسلبوا البلاد حريتها وأمنها ..

ورآه حامد وهو يعدو مبهور الأنفاس فعزم على أن يعاونه فراح يزحف ودمه ينزف من صدره ومن ساقه المبتورة فيرسم خطين على الأرض ، واستمر في زحفه حتى بلغ مكان القذائف ، فأخذ قنبلة ورفعها بيده وقد استلقى على

ظهره ، فلما جاء المدافع الباسل تناولها منه وقد تهلت أساريره وأشرق وجهه العابس الذى امتزج فيه العرق بالدم بالتراب .

ولمح يوسف ما يفعله حامد فزحف على بطنه حتى بلغ مكانه ، فتمدد على الأرض بعده وقد وضع قدميه عند كتفى حامد ، فأخذ حامد قنبلة ، ومد يده إلى يوسف فتناولها بيده السليمة ، فلما لمح الجندى الباسل يهرول نحو القذائف رفع يده بالقنبلة ودفع بها إليه ، وأراد أن يشجعه ولكنه لك يقو على الكلام ، فاكتفى بأن منحه بسمه ومضت فى الوجه الأغبر كالبرق فى ليلة ظلماء .

ورأى الجنود المشخون بالجراح ما يفعله حامد ويوسف ، فزحفوا إليهما من كل صوب والدماء تسيل منهم على الأرض ، كلما جاء رجل تمدد بحيث تكون قدماه عند كتفى من سبقه حتى كونوا سلسلة بشرية بين مكان القذائف والمدفع .

وأخذ حامد قذيفة ومد يده بها إلى يوسف ، فتناولها يوسف بيده السليمة ودفع بها إلى الجندى الممدد على الأرض خلقه فمررها هذا إلى من بعده بقدمه فقد أطاحت القذائف بذراعيه ، واستمرت القذيفة تنتقل بين السلسلة البشرية الممتدة بين مكان الذخائر والمدفع ، كل ينقلها بعضوه السليم ، حتى وصلت إلى ذلك الصنديد الذى أبى أن يستسلم وبين جنبيه نفس يتردد ، فأطلقها وهو يصيح فى ثورة وغضب : لن تمروا إلا على أجداننا أيها الأوغاد !.

وراحت القذائف تمرر على الأرض ، يدفعها هذا بذراعه اليمنى وذلك بذراعه اليسرى وثالث بقدمه ، حتى تصل إلى الجندى السليم وهو فى مكانه ، فيطلقها مدوية مزجرة ، واستمرت الأيدي والأرجل تتبادل القذائف ،

فدبت الحياة في قلعة الأبطال ، وأفعمت الصدور بالحماسة ، فاستغرقوا فيما كانوا فيه حتى نسوا آلامهم والدماء التي راحت تنزف منهم .
وصوبت مدافع الأسطول إلى طابية صالح ، تلك القلعة التي أثبت أن تستسلم ما دام فيها جندي واحد قائما على قدميه ، فتطايرت شظايا القذائف وشظايا الحجارة المنهارة ، وعبق الجو برائحة البارود ، فأمست القلعة كقطعة من الجحيم .

وأصيب الجندي الباسل الذي كان يقاوم الأسطول وحده مقاومة الجبابرة ، أصيب إصابة مباشرة فتناثر أشلاء في القلعة التي أبى أن يسلمها وفيه عرق ينبض ، فانقبضت صدور الجنود الذين تمددوا على الأرض كالسلسلة ولاح في وجوههم الأسى والقهر ، وطفقت أفتدتهم تنزف المرارة والحقد .
وسكت آخر صوت كانت تطلقه المعازل المصرية ، ولكن الأسطول الغادر ظل يقذف بحممه في جنون ، حتى إذا ما اطمأن إلى صمت القلعة العنيدة صوب مدافعه إلى المسجد القائم في طابية قايتباي ولم يهدأ حتى هدمه ! .
وأحس حامد وهنا يدب في أوصاله ، فنادى في صوت ضعيف :
— يوسف .. يوسف .

فرحف يوسف إليه ، حتى إذا حاذاه رنا إلى وجهه فألفاه ذابلا يلتقط أنفاسه في جهد ، والدم ينزف من صدره ، فمد يده السليمة ووضع كفه على الجرح ، فلم يلتفت حامد إلى ما فعل وقال في صوت واه :
— اذهب إليهم ، أصبحوا في حاجة إلى رجل يرعاهم .. قل لجدي إنني مت وأنا قرير العين .. وبلغ سعدية سلامي .

وأسبل حامد عينيه في وهن ، ثم فتحهما في جهد وهمس :

— اذهب .. ماذا تنتظر ؟.

وصمت حامد وطال صمته ، فهتف يوسف في لوعة :

— حامد .. حامد ..

وظل حامد صامتا فقد أطبق شفثيه إلى الأبد ، واستمر يوسف يرنو إليه
باسر الوجه ، بصر على أنيابه في حنق ، ثم راح يزحف حتى إذا ما غادر القلعة ،
كان الظلام قد ران على الكون وبلغ كل شيء في جوفه ..

٤١

قرأ الشيخ إبراهيم المنشورات التي راح يوزعها سلطان باشا وعمر
لطفى باشا في طول البلاد وعرضها ، فاريد وجهه وامتلأ حنقا . قد كانت
منشورات خبيثة تحض الناس على الانفضاض من حول عراى والخنوع
للمحتلين الغزاة .. وزاد في حنقه أن تلك المنشورات تسربت بالتقوى
والورع ، وشهرت سلاح الدين في وجه عراى . فتيقن أنها ستفعل في
عقول السذج من الناس الأفاعيل ، فقد جاء فيها أن عراى ثائر على
السلطان وأنه خارج على ولى الأمر ، فهو مارق من حظيرة الدين ، فمن
يؤيده فإنما يؤيد عاصيا ، ولن يكون حظه إلا مثل حظه ، المروق من
الإيمان والخروج على الدين .

يا للأكاذيب ، شوه وجه الحق ، أصبح الدفاع عن البلاد كفرا
ومروقا ، أما الخيانة والخنوع والاستسلام للمحتلين فهى الإيمان

العميق !!

آه لو كان هؤلاء السذج من الناس يعرفون دينهم الصحيح ، إذن لخلعوا الخديو ، ولشقوا عصا الطاعة ، وثاروا في وجه السلطان الذى قبل تحت ضغط الدول الأوروبية أن يسلمح الإنجليز بحجة تجعل احتلالهم في نظر البسطاء أمرا مشروعا موقوتا بعودة السلطة للخديو ، ولهبوا عن بكرة أبيهم يقاتلون في سبيل وطنهم ، فقد صار الجهاد فريضة على كل منهم حتى يموت شهيدا أو يجلى المعتدين عن أرض الآباء والجدود .

وأطرق يفكر مهموما في هؤلاء الخونة الذين يسروا للإنجليز احتلال البلاد ، لماذا انضم الخديو توفيق وسلطان باشا وعمر لطفى باشا ومن لف لفهم إلى الغزاة طائعين و لماذا اشتروا الضلالة بالهدى ، لماذا قبلوا الذل والهوان ؟!

إن الخديو يمقت عرايى ويغار منه ، فما أن نشبت الحرب بين المصريين والبريطانيين حتى تظاهر بالوطنية وأيد الوطنيين ، فإذا ما ثبتت الحصون والقلاع ولم تهزم أمام الأسطول ، احتفى بالرأى العام ، أما وقد اندكت الحصون وانهارت القلاع فقد رفع عن وجهه القناع وانضم إلى الأعداء ، إنه لم يشذ عن طبعه ، لعب دورا مزدوجا ، فلما ظهرت النتيجة ارتقى في أحضان المنتصر دون أن يفكر كثيرا فيما سيلطخه من الذل والعار ، كانت كل أمنيته أن يقضى على عرايى ، وقد واثته فرصته !

وسلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ومن يسمى بين كبار الملاك « ملك الوجه القبلى » ، لماذا انضم للأعداء ؟ إنها ثروته ، إنها كبريائه ، إنه جাহه ، إنه غروره ، كل أولئك أوردته موارد الهلاك ، كانت له الصدارة في أي اجتماع ،

وكان ينظر إلى عرابى فى أول أيامه نظرة الرعاية التى يمنحها الكبير للصغير ، وكان يرى فيه أداة لتحقيق مآربه وتنفيذ أحلامه ، فلما رأى عرابى ليس بالمطية التى تقوده حيث يشتهى ، وأن عرابى صار وزيرا وزعيما للأمة ، حقد عليه ، وزاد فى حقه أن غض الطرف عنه ، ولم يفكر أحد فى أن يقلده الوزارة على الرغم من تعاقب الوزارات ، فوسوس له شيطانه أن المصريين لم يفوه حقه من الاحترام ، فانضم إلى الإنجليز لعله ينال ما تنهفوا إليه نفسه من توقيف وجاه ! وعمر لطفى ، ذلك الرجل الجر كسى الطماع ، لا يهمه من الأمر إلا مجد نفسه . لأنه على استعداد أن يحالف الشيطان إذا كانت هذه المحالفة تقوده إلى كرسى الوزارة ، أقام مذبحا فى الإسكندرية ليقضى على عرابى وليصبح وزيرا للحرية بعده ، وقد حقق حلمه شهورا ، ولانه يعاون الإنجليز اليوم ليُدوم له المجد والسلطان .

وهؤلاء الضباط الذين خانوا الأمانة ، لماذا انضموا إلى أعداء البلاد ؟ لماذا قبل بعضهم أن يخذل الجيش عن قائده ، وأن يضع بعضهم المصاييح فى جوف الليل ليسير على هديها الغزاة ؟ أخرس ضمائرهم الذهب الوهاج ، ولكن هل أرضى الإنجليز طمعهم وأشبعوا نهمهم إلى المال ؟ خدعوه وأعطوهم نقودا من رصاص سكوها للخونة الطامعين فى الثراء . إنها سلسلة قلرة من الغش والخذاع .

يا للنفوس الوضيعة والضمائر الخسيسة ، قبل الخونة عار الدنيا وخزى الآخرة ليطفئوا أحقادهم ، ليقضوا على الغيرة التى تهش صدورهم ، ليكدسوا المال الحرام فى خزائهم ضاعت البلاد فى سبيل إشباع بعض الشهوات .

ومرت خديجة بأبيها فألفته مطرقا مقطب الجبين ، فانقبضت ورقرق قلبها بين ضلوعها رهبة ، وقالت في فرع :

— أبلغك أخبار عن عمار ؟

فقال في صوت خافت :

— لا ..

— ولماذا أنت مطرق ؟

ماذا يقول لها ؟ أيقول لها أن الإنجليز أو هموا العالم أن في مصر فتنة وأنهم ما تدخلوا إلا لحماية أرواح الأوروبيين وأملاكهم ، وأنهم قد أغروا توفيقا وأوهموه أنهم لا ييغون إلا حمايته من رعاياه الثائرين ليجبروه على قبول الحماية البريطانية ؟!

أيقول لها إنهم فعلوا بمصر ما فعله الفرنسيون بتونس وأن الاستعمار ينشر ظله البغيض على البلاد الإسلامية ؟ وإذا قال لها ذلك أتفقّه قوله ؟ إن كل ما تعرفه من الأمر أن عمارا قد ذهب وأنها تنتظر عودته ، فأثر أن يلوذ بالصمت وأن يمضغ أشجانه وحده .

وتصرم الوقت وهو مطرق غارق في أحزانه ، وإذا بأصوات فرح وابتهاج تصك أذنيه ، فرفع رأسه فألقى خديجة ترحب بعمار وقد طفرت دموع الفرح من مآقيها ، كانت أشبه بطفلة عاد أبوها بعد طول غياب .

وقام الشيخ وانطلق إليه يصافحه ، وقال له في صوت حزين :

— ماذا وراءك ؟

فقال عمار في مرارة :

— إنها الهزيمة ، تفرق الجند وفر كل إلى بلده .

— وعرائى ماذا فعل ؟ .

— ذهب إلى القاهرة .

— ولماذا لم تذهبوا معه ؟

فصمت عمار ولم يحرج جوابا ، فقال الشيخ ودموعه تخضب لحيته :

— ليتنى كنت شابا ، فتحت الجنة أبوابها فأعرضتم عنها .

فقال عمار فى انفعال :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ حاربنا كما ينبغي أن نحارب ، دافعنا عن

شرفنا ، ولم يهزمنا الجنود ولكن هزمتنا الخيانات ، خيانات البدو وخیانات

الخدیو والباشوات ، هل كنت تتصور أن موسيقى الخديو تصدح بأنغام الظفر

لما يبلغ الخديو نبأ استيلاء الإنجليز على التل الكبير !؟

وساد صمت حزين ، فمدت خديجة يدها وجذبت عمار ، وانطلقا وقد

خلفا الشيخ للأحزان والهموم .

واستمر الشيخ فى إطراره حتى مالت الشمس للغروب ، وسمع وقع أقدام

تقترب منه فرفع رأسه ، فإذا بيوسف أمامه يمد له يده ، فصافحه وقد رف قلبه

بين جنبیه ، تذكر حامدا ، وقام فى نفسه سؤال : ترى أفر كما فر الآخرون ؟

وقال فى لهفة :

— أرايت حامدا ؟

. فهز يوسف رأسه فى أسى وقال فى صوت متهدج :

— طلب منى أن أقول لك إنه مات قرير العين .

فلاح فى وجه الشيخ الحزن العميق ، وراح يغالب حزنه ، ولكن تفرقت

فى عينیه الدموع فمسحها بظهر يده .

ولمح الشيخ سعدية قادمة نحوهما فأربد وجهه وانقبض صدره ، وفطن يوسف إلى تبدله ، فتلقت ، فلما وقعت عيناه على سعدية تفجرت في جوفه إحساسات متباينة ، ورق لها وأشفق عليها وحن إليها ، ولو طأوع نفسه لهرع إليها يضمها إلى صدره لئتمتزج دموعه بدموعها ، وليحمل عنها بعض ما سينزل بقلبها من الحزن الثقيل .

ونظرت إليهما فحزر قلبها كل شيء ، أحس أن حامدا ذهب ولن يعود ، فانقبضت وأحست نارا تسرى في أحشائها ، ولم تحمل العذاب الذى استشرى في جوفها فقالت في فزع :

— أين حامد ؟ لماذا لم يعد ؟ .

فقال لها يوسف وقد أطرق :

— طلب منى أن أبلغك سلامه .

فقالت في لهفة :

— أين هو ؟

فدنا جدها منها وضمها إليه في حنان ، وغمغم في أسمى :

— تشجعى ياسعدية .

وكأنما لم تفهم فصاحت في فزع :

— ماذا جرى له ؟ .

فقال الشيخ في صوت حزين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— استشهد .

ولم تصرخ سعدية ولم تمزق شعرها ، وانطلقت شاردة اللب حتى إذا
بلغت شجرة التوت ارتمت على الأرض ترويتها بدموعها ، ووقف
يوسف على البعد يرنو إليها وفي الحلق غصة وفي الجوف نار
تتلاظى :

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة
- (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- (مجموعة أقاصيص)
- هزات الشياطين
- أبناء أبى بكر الصديق
- (رواية)
- فى قافلة الزمان
- (قصة)
- أميرة قرطبة
- (قصة)
- النقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله
- تأليف : مولاي محمد على
- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
- قصص من الكتب المقدسة
- (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين
- (مجموعة أقاصيص)
- ترجمت إلى الإندونيسية
- حياة الحسين

- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أفاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- التمر

- الله اكبر
- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

رقم الإيداع ١٥٦٨

الترقيم الدولي : ٦ — ٢٣٤ — ٣١٦ — ٩٧٧